

Shusaku Endo
شوساكو إندو

الظلال والعشاء الأخير

ترجمة: عبد الحميد الغرباوي

Telegram: @mbooks90



مختارات
قصصية

Shusaku Endo

شوساكو إندو

الظلال والعشاء الأخير

أعد النص العربي: عبد الحميد الغرباوي

دار خطوط وظلال

لا أعرف ما إذا كنت سأبعث لك هذه الرسالة أم لا.

لقد كتبت لك ثلاث رسائل بالفعل، ولكن إما أنني توقفت في الطريق وعدت أدراجي دون إرسالها بالبريد، أو أودعتها درج مكنتي.

في كل مرة أتناول فيها قلمي، يخالجنى اعتقاد أن الرسائل التي أكتب، موجهة إلي أكثر، قبل أن تكون موجهة إليك، وذلك لأجل التخفيف من قلقي، وفهم ما يحدث في عقلي. لم أرسل أي شيء، لأنني في النهاية أعرف أن الكتابة غير مجدية ولا تجلب لي رضى حقيقيا. ومع ذلك، فإن الأمور اليوم مختلفة قليلا. وعلى الرغم من أنني لم أتقبل ما حدث تماما بعد، إلا أنه يخال لي أنني بدأت أفهم ذلك شيئا فشيئا.

بماذا يجب أن أبدأ؟ بذكريات طفولتي، عندما التقيت بك وأنت تحل لأول مرة باليابان؟ أو بيوم وفاة والدتي، عندما أسرعنا إلى المنزل وفتحت باب الدخول وأنت تهز رأسك قائلا: "انتهى الأمر"؟

في الواقع، لقد رأيتك بالأمس. بالطبع، لم تلاحظ حضوري ناهيك عن أنني كنت أراقبك. وأنت جالس إلى مائدة تنتظر أن يقدم لك الأكل، أخرجت كتابا من حقيبة سوداء قديمة (أتذكر جيدا تلك الحقيبة) وشرعت في القراءة. ذكرني ذلك في الحقيبة التي كنت فيها راهبا، عندما كنت تأخذ موجز الصلوات وتفتحه قبل الوجبات.

كنت في مطعم صغير في (شيبويا)، ومطر شفيف يسقط، ومن خلف النافذة الضبابية تبدو خيالات المارة شبيهة بأسماء في أكواريوم. كنت، أثناء تصفح صحيفة رياضية بيد واحدة، أبتلع أرز (الكاري) باليد الأخرى. كان يشغل خبز انتقال أحد اللاعبين المفضلين لدي من فريق (تايو) عمودا كاملا من الصفحة، وفي أسفلها قصة منشورة يكتبها صديق في حلقات.

وأنا أرفع رأسي، مديرا ظهري، رأيت في زاوية من المطعم شخصا غريبا يرتدي الأسود، على وشك الجلوس. يا لها من مفاجأة! لم أرك منذ ست سنوات خلت. كان كرسيانا يبعدان عن بعضهما البعض مسافة عشرين مترا. وبيننا مائدة يجلس إليها أربعة أو خمسة موظفي مكاتب، يتناولون هامبرغر.

"... من الصعب تجاوز السرعات، لكن لا يوجد شيء يمكن فعله حيال ذلك.

- لا، لا. هذا ليس صحيحا."

هذا ما التقطته أذني مما كان يدور بينهم من حديث. كان لدى أحدهم وخمة بحجم عملة عشرة (ين) على جبهته الصلعاء.

ابتسمت بلطف للنادلة الشابة التي جلبت لك كوبا من الماء، وأشرت بأصبع إلى شيء ما في لائحة الطعام. أومأت برأسها وانصرفت. أخرجت كتابا من حقيبتك السوداء القديمة وشرعت في القراءة. لا أعرف ما إذا كان الكتاب مكتوبا بالإنجليزية، لكنني خمنت أن كتابته كانت أفقية.

" كم هو طاعن في السن، إنه رجل عجوز"

قلت في داخلي. قد يكون الحديث عن راهب بهذا الشكل غير لائق، لكنك كنت رجلا وسيما في شبابك.

عندما قابلتك لأول مرة، كان ذلك في مستشفى (كوبي). أتذكر جيدا، أدركت رغم حداثة سني، وأنا أرى وجهك المنحوت، وعينيك الأرجوانيتين الهادئتين كم أنت وسيم. اليوم، خربت السنوات وجهك، وشعرك البني انسل (شعري أنا أيضا بالمناسبة). أسفل عينيك منتفخ وأحمر كما لو تم فيه زرع السيليكون. لقد كنت أبحث عما إذا كان وجهك يعبر عن الوحدة منذ " الحادث". أردت أن أرى بأم عيني ما إذا كانت المعاناة التي تحملتها محفورة: حقيقة أن يكون لديك زوج وأطفال، وإكراهات العمل في بلد أجنبي، واختفاء أصدقائك، وفقدان أي مساعدة ممكنة.

كنت أرغب في النهوض والاقتراب لأقول لك: " أوه! لم نر بعضنا البعض منذ فترة طويلة..." لكنني عجزت، وبقيت جالسا أتجسس عليك، مختبئا خلف صحيفتي مثل محقق خاص. ومن الواضح أن فضولي استيقظ؛ كان أكثر من مجرد فضول الروائي الذي أنا عليه. قوة داخلية شديدة منعتني من الاقتراب منك.

سأصف لك اليوم، في هذه الرسالة، هذه المقاومة. بقيت جالسا أراقبك خلسة. وأخيرا جلبت لك النادلة طلبك. أومأت برأسك مرسلا لها نفس الابتسامة، ثم ربطت

منديلا حول رقبتك بدلا من المنشفة. لم تفارقك عيناى. قريت كرسىك من الطاولة درجة احتضانها، ثم رفعت إصبعا إلى صدرك وقمت برسم الصليب بسرعة حتى لا يراك أحد. فى تلك اللحظة، ثارت عاطفة لا توصف فى داخلى. قلت لنفسى: «لم يتغير!»

من الصعب على أن أشرح سبب عدم تمكنى من القدوم إلى طاولتك. فى الواقع، السبب هو تعاقب التيارات التى شكلت وجودى. حتى الآن، غطست يديّ اللتين هما يدي كاتب فى تلك الأنهار العظيمة، وأنجزت روايات متنوعة. وجدت وأخرجت من الأعماق الرواسب التى جمعناها بعد تنقيتها. لا تزال هناك أشياء مهمة لم أخرجها إلى السطح. ما زلت لم أكتب عن والدى الذى لم تقابله من قبل، أو والدتى التى كنت تعتنى بها طوال حياتها. ولم أتحدث عنك أنت أيضا. لا، هذا ليس صحيحا. منذ أن أصبحت روائيا، وصفتك ثلاث مرات، لكن بطريقة لا تجعل أحدا يتعرف عليك. بعد «الحادث»، أصبحت، منذ فترة طويلة، طيفا أساسيا فى كتاباتى. أصبحت أحد الشخصيات الأساسية، ومع ذلك أصفك عموما بالفشل. أعرف السبب: لا يمكنى تحديد وضعك بعد. على الرغم من إخفاقاتك المتكررة، لم تتوقف أبدا عن مطاردة كوني الروحي. كنت سأكون سعيدا جدا بتمكنى من طردك بعيدا. لكن كيف يمكنى الابتعاد عنك وعن والدتى؟

إذا عدت إلى مجرى حياتى، فأنا حتما أفكر فى الكنيسة الصغيرة فى (هانشين) حيث كان من المفروض أن أعمد. لا تزال هذه الكنيسة الصغيرة كما هى حتى اليوم، مع برجها القوطى المزيف والصليب الذهبى والحديقة المليئة بالدفلى. كما تعلم، كانت والدتى تتمتع بمزاج عاطفى وانفصلت عن والدى بسبب ذلك. غادرث (داليان)، فى (منشوريا)، للعودة معها إلى اليابان وذهبنا للعيش مع أختها الكبرى فى (هانشين).

شجعت خالتي، شديدة التدين، والدتى المكتئبة، على اللجوء إلى الإيمان لتخفيف وحدتها. اضطررت، بدافع الضرورة، إلى الذهاب إلى الكنيسة، برفقة المرأتين. كان الراهب الذى المكلف بهذه الكنيسة فرنسيا من جبال البرانس. ذات يوم، مع اشتداد

الحرب، اقتاده اثنان من أفراد الشرطة العسكرية الذين اقتحموا الكنيسة. كان يشتبه في قيامه بالتجسس.

ومع ذلك، وقع هذا الحادث بعد ذلك بكثير. كانت الحرب قد اندلعت بالفعل في الصين لكن الوضع لم يكن متوترًا للغاية بالنسبة للكاثوليك اليابانيين. يمكنهم جعل الأجراس تدق بصوت عالٍ طوال ليلة عيد الميلاد ويوم عيد الفصح. كان مدخل الكنيسة مزدانًا بالزهور، وكنا فخورين جدًا عندما ينظر أطفال الحي بحسد إلى الفتيات ورؤوسهن مغطاة بحجاب أبيض مثل الفتيات الأجنبية. في أحد أيام عيد الفصح، جعل الراهب الفرنسي عشرة أطفال في صف واحد وسألهم واحدًا تلو الآخر: «هل تؤمن بالمسيح؟» كلهم كرروا مثل الببغاوات: «نعم». كنت أحدهم، وقلدت أصوات الآخرين، وصرخت: «نعم، أنا أؤمن به».

في الصيف، غالبًا ما يقدم لنا أحد الإكليريكين في الكنيسة عروضًا شخصياتها من ورق، أو يأخذنا في رحلة إلى جبل (روكو). كان يعود من وقت لآخر إلى قريته الأصلية، وعند عودته كنا نلعب البيسبول كثيرًا في الحديقة، وعندما تصطم الكرة بالزجاج، كان القس الفرنسي يخرج وجهه الغاضب من النافذة ويصرخ فينا. لا أستطيع أن أقول إن كل الأيام كانت سعيدة، لأنه عندما تحدثت والدتي إلى خالتي، يكون وجهها مطلقًا. ومع ذلك، كانت فترة مستقرة إلى حد ما، مقارنة بالوقت الذي كنا نعيش فيه في (داليان)، وكنت بمفردي وسط والدي المتشاجرين.

في بعض الأحيان يأتي شخص غريب في سن معينة إلى الكنيسة. يختار وقتًا لا يكون فيه أحد، وعندما نكون نلعب البيسبول، نراه يتسلل خلسة إلى بيت الراهب. "من هذا؟" أسأل والدتي وخالتي اللتين تتجنبنا نظرتي لسبب غير مفهوم دون الإجابة.

أخبرني رفيق عن هذا الشخص الذي يجر قدميه ماشيًا: «هذا الرجل خطام». على الرغم من كونه راهبًا، فقد تزوج من امرأة يابانية شابة فطرد من الكنيسة. لم يتحدث عنه المتدينون الملتزمون في الحي أبدًا، كما لو أن مجرد نطق اسمه يندس إيمانهم. الوحيد الذي يراه سرًا هو الراهب الفرنسي. بالنسبة لي، نظرت إليه خفية بشعور من

الخوف والفضول الممزوج بالإثارة.

في شبابي، أيام كنت في (داليان)، رأيت العديد من الروس البيض العجزة المطرودين من وطنهم في هذه المدينة المستعمرة، وذكرني وجه هذا الرجل برجل عجوز يأتي لبيع الخبز في الحي الياباني. مثله، كان يرتدي عباءة رثة، وينزل من حول رقبتة وشاح محبوك يدويًا ويجر ساقيه المنخورتين بالروماتيزم. ومن حين لآخر يمسح أنفه مثله بمنديل قذر كبير.

إذا نظرنا إلى الوراثة اليوم، كان هذان الرجلان محاطين بنفس هالة العزلة الخاصة، بأولئك الذين تم استبعادهم من المجتمع الذي هو جوهر وجودهم.

في إحدى أماسي العطلة الصيفية، كنت أسير على طول الطريق. ربما كنت على ما يبدو ذاهبًا لألعب البيسبول، عندما كدت فجأة أن أسقط الرجل العجوز أمام باب الكنيسة الذي غمرته أشعة الشمس. لم أتوقع أبدًا أنه سيخرج من هذا المكان.

بقيت في مكاني بلا حراك، متجمدا من هول الصدمة. كلمني، لكن كنت غير قادر على فهم أي شيء، كان يغمرنني شعور بالقلق والرهبة. هزرت رأسي وأسهرت إلى الدرج الحجري المؤدي إلى الكنيسة، فإذا بيد كبيرة تحط على كتفي، وتعني تقريبا باليابانية شيئًا مثل: «لا تخف» أو «لا شيء يدعو إلى الخوف».

كانت رائحة فمه كريهة. أطلقت ساقى للريح. كل ما التقطته في تلك اللحظة، عينيه الأرجوانيتين المفعمتين بالحزن. عدت إلى البيت، أخبرت والدتي بالقصة، لكنها لم تعلق. وفي غضون يومين أو ثلاثة أيام، نسيت كل شيء. الغريب أنك بعد شهر، دخلت حياتي. لا يسعني إلا أن أعتقد اليوم، أن هذه المصادفة كان لها معنى كبير في مجرى حياتي.

قبل عام، بينما كنت أكتب رواية طويلة، غالبًا ما كنت أفكر في هذه المصادفة. في القصة، تقارنُ إحدى الشخصيات الرئيسية الوجة المنهك والهزيل للمسيح بذلك الوجة الهادئ والنبيل والمفعم بالحماسة، الممثل في الرسم الديني الغربي.

عندما كتبت هذا المقطع، كانت الصور الوحيدة التي تتبادر إلى ذهني هي صورة

وجهك وصورة هذا الرجل الذي طرده الآخرون من العيش بينهم.

في خريف ذاك العام، دخلت المستشفى الخيري في (ندی) لإجراء عملية جراحية لالتهاب الزائدة الدودية. بمجرد إزالة خيط العملية الجراحية، أحضرت لي أمي وخالتي حساء الأرز. كانوا يطعمونني عندما دخلت الغرفة فجأة. كلاهما قامتا مذهولتين، ليس للدخول المباغت لراهب، ولكن لأن حتى إلى ذلك الحين، كان رجال الدين الوحيدون الذين عرفناهم هم من كنيستنا أو من كنائس أخرى؛ كانوا جميعهم نحيلين ويرتدون نظارات ذات عدسات سميكة. الراهبان اليابانيون يبدوون على وجه الخصوص، غريبين جدًا لدرجة أنه يمكن للمرء أن يقرر ما إذا كانوا يابانيين من الجيل الأول أم من الجيل الثاني. عندما فتحت الباب، كنت مختلفًا تمامًا عما عن الآخرين؛ كان جسمك المتين تحت بدلة سوداء مثالية، مع ياقة كنسية بيضاء وكان وجهك الذي ينم عن تغذية جيدة وابتسامتك اللطيفة التي تضيء أساريرك كافيين لإغراقنا في السرور.

بعد أن رحبت بأمي وخالتي بأدب جم، ملت إلي، بينما كنت متجمدا، ما زلت أمسك عيدان تناول الطعام ووعاء الأرز في يدي. تحدثت اليابانية بطلاقة. كانت جبهتي تتفصد عرقا وأنا أحاول الإجابة على أسئلتك.

"نعم. أنا بصحة جيدة. أبدا، لا أشعر بالوحدة"

بعد أن غادرت، صحت إعجابا: «يا له من رجل وسيم!» وتنهدت أمي تنهيدة كبيرة وقالت: «من المؤسف أن يكون مثل هذا الرجل راهبا لا يمكنه الزواج». أما خالتي فغضبت من كلامنا الذي في نظرها كلام فاحش.

غير أن أمي بدت مهتمة بك للغاية. كانت، في كل مرة تزورني في المستشفى، تسأل عما إذا كنت قد أتيت.

ودون سبب محدد، كنت أشعر بعدم الارتياح وأجيبها بفضافة: "أنت تزعجينني! لا أعرف..."

ومع ذلك، تدبرث أمرها، وبفضول غاية في الأنوثة، تمكنت من معرفة أنك تخرجت

من مدرسة عسكرية إسبانية، وأنت بعد تفكير تخليت عن حياتك العسكرية لاختيار طريق التعاليم والالتحاق بالمدرسة الدينية، ثم بعد وصولك إلى اليابان قضيت عامًا في دير في (كاكوجاوا).

"إنه ليس راهبًا مثل أي راهب آخر، إنه ينحدر من عائلة مثقفة. أكيد أن والدته سعيدة بإنجاب مثل هذا الابن الاستثنائي."

كانت أمي تقول لي ذلك لتحفيزي، لكن على الرغم من حداثة سني، كنت أشعر أن كلامها لم يكن موجهًا لي وحدي فقط.

والذي، الذي فضل بشخصيته الخجولة أن يسلك طريقًا هادئًا خلال حياته، لم يستطع تحمل طريقة حياة والدتي. الديانة المسيحية، التي تبنتها والدتي في البداية بناءً على نصيحة أختها لتخفيف وحدتها، أصبحت في ذلك الوقت واقعا بالنسبة لها. أثناء تدريسها الموسيقى في مدارس مختلفة في (هانشين)، التهمت كل الكتب التي أعرت لها. من هنا تغيرت حياتها. لقد فرضت على نفسها وعلي طقوسا صارمة في الصلاة، تشبه طقوس راهبة. كانت كل صباح تأخذني إلى القديس، وبمجرد ما أن تحظى بلحظة انفراد بنفسها، حتى تبدأ في تلاوة ورديتها. درجة أنها بدأت تريد تعليمي كي أصبح راهبًا مثلك.

لا أنوي وصف علاقاتك الروحية معها هنا. ومع ذلك، بعد عامين، كنت تأتي إلى المنزل كل يوم سبت بصفتك المسؤول عن ضمير كل من خالتي وأمي. الأصدقاء والمخلصون للكنيسة يلتقون هنا أيضًا. هل يمكنني أن أعهد لك بسر اليوم؟ كانت زيارتك غاية في الإزعاج بالنسبة لي. كانت أمي تجبرني، أكثر من المعتاد، على غسل يدي، وقص شعري، وتأمري بنبرة صارمة: «عندما يكون الأب هنا، كن مستقيماً!»

الأسوأ أنه كان من المفترض أن أفهم ما تقوله للبالغين الحاضرين. كنت أحاول بكل قوتي مقاومة النوم وأنا جالس بجانب والدتي، متوتر أو سريع التعب (تذكر بنيتي الضعيفة عندما كنت طفلاً). وصايا العهد القديم أو الجديد أو المسيح أو موسى كل ذلك لم يشدني إليه كثيرًا، وكافحت بشدة ضد الملل المتزايد وثقل جفني عن طريق

قرص ركبتي أو التفكير في شيء آخر. لذلك رمقتني أمي بنظرة متوعدة، وخائفا، صمدت قدر المستطاع لمدة ساعة.

في الصباح، في الصيف كما في الشتاء، لم تسمح لي بتفويت القداس. في الخامسة ونصف، عندما كانت السماء لا تزال مظلمة وكانت جميع المنازل نائمة، أمشي خلفها، على طول الطريق المتجمد نحو الكنيسة، وأنا أنفخ على أصابعي لتدفئتها، بينما هي تتلو صلواتها في صمت.

خيال الراهب الفرنسي، المنحني على المذبح ويده مشبوكتان، يتراقص على الحائط في وهج الشمعة الخافت. كنا وحدنا في الكنيسة شديدة البرودة مع امرأتين عجوزين راكعتين أمام المذبح. عندما ترى أمي رأسي متديا يتمايل، أظهار بالصلاة، ترمقني غاضبة، وتسالني: "هل تعتقد أنك ستصبح مثل الأب إذا تصرفت هكذا؟".

كنت الأب في عينيها، الصورة المثالية لمستقبلي وللرجل الذي يفترض أن أكون عليه. بلغت حداً كرهتك فيه، كرهت ملابسك النظيفة، ووجهك ويديك الناصعتين لشدة نقاوتهما. لقد مقت ابتسامتك الواثقة ومعرفتك وحماستك. هل تتذكر؟ كان هذا في الحقبة التي انخفضت فيه تقديراتي تدريجياً. في الصف الثالث، تعمدت أن أصبح تلميذاً كسولاً مهملاً مظهري. والسبب؟ لأن ذلك يمثل عكس ما أنت عليه تماماً. أردت أن أتمرد على صورتك، صورة رجل يعيش قناعاته، وفعلت كل شيء لأصبح غيبياً. بالطبع، كنت أظهار بالعمل أمام والدتي، لكنني في الواقع لم أكن أفعل شيئاً. كان لدي في ذلك الوقت، كلب هجين أعطاني إياه بائع الأنقليس. لم يكن لدي أخ أو أخت أو صديق يقاسمني حزن انفصال والدي، لذا دلّعت هذا الحيوان البهيمي بشكل مخجل. إذا ظهرت الكلاب والطيور في رواياتي، حتى اليوم، فليس لغرض الزخرفة. كان لدي شعور أن هذا الهجين هو الوحيد الذي كان يفهم وحدتي عندما كنت طفلاً عاجزاً عن التواصل مع أي شخص. حتى الآن، تذكرني عيون كلب دامعة وحزينة بعيون المسيح. المسيح الذي أتحدث عنه ليس الشخص الذي، كان مثلك في الماضي، يثق بنفسه، بل هو الشخص صاحب الوجه المنهك والهزيل الذي داسه القوم وتبرؤوا منه.

كانت أمي غاضبة من نتائج المتدهورة، فاستشارتك. نصحتني بصوت حازم أن أجتهد أكثر حتى لا تقلق. فأجبتك بداخلي: "عم تحكي؟ يا لك من غريب غبي!". بعد ذلك، ولأنك كنت الشخص الذي نصحتني بمضاعفة جهودي، أصبحت أكثر سوءاً. أخبرت والدتي وخالتي أن الأطفال في الغرب يتلقون العقاب الشديد، وأن الانضباط ضروري للأطفال الكسالى. ونظراً لنتائجي في الدورة الثالثة التي ظلت سيئة، فقد نصحت أمي أن تحرمني من كلبتي عقاباً لي.

ما زلت أتذكر حزني ذاك. فذات يوم من أيام تمردتي وعصيانتي، لاحظت عند عودتي من المدرسة، اختفاء حيواني المحبوب. طلبت أمي من طفل من أطفال الحي أن يأخذ كلبتي بعيداً إلى مكان ما. ربما نسيت اليوم تلك الحادثة. كان الكلب بالنسبة لك عقبة تشغلني عن دراستي، وما التخلص منه إلا لأجل مصلحتي. اليوم بطبيعة الحال أنا لا أكرهك بسبب ذلك. غير أنني إذ أستحضر هذه الحكايات غير ذات الأهمية، فذلك لأنها تلخص شخصيتك جيداً. لقد كرهت أكثر من أي شيء آخر، في الآخرين وفي نفسك، الضعف والكسل والإهمال. وربما تأتي لك ذلك من عائلتك أو ربما من التربية التي تلقيتها في الجيش.

يجب أن يكون الرجل قويًا، وأن يحاول تجاوز نفسه أكثر فأكثر، وأن يتحكم في حياته ويتمسك بما يؤمن به.

لم تتلفظ بالضبط بهذه العبارة، لكنك طبقت مبادئها في حياتك. يعلم الجميع مدى عمق ما قدمته في عملك التبشيري وفي دراساتك اللاهوتية.

لم يكن أحد بمقدوره أن يعارضك أو يؤاخذك على شيء أو فعل، والجميع (بما في ذلك والدتي) كانوا يحترمونك. كنت الوحيد، ذاك الطفل الذي يعاني في داخله من هذه الصورة المثالية التي لا تشوبها شائبة.

ولسوء حظي، حصلت على وظيفة جديدة. فقد تم بناء مأوى للطلاب المسيحيين على مرتفعات (ميكاج) وعُينت مسؤولاً عليه فتركت منصب راهب المستشفى الخيري.

"هذه الوظيفة لا تغريني حقاً"، هذا ما أعلنته أمام المخلصين المجتمعين لأجل قراءة الكتاب المقدس.

"لكن يجب أن أفعل ذلك لأنها أوامر رؤسائي."

وعلى الرغم من ترددك في البداية، إلا أنك سرعان ما أحببت هذه الوظيفة.

ذات يوم، بينما كنا في طريقنا إلى المنزل، سألتني أمي فجأة عما إذا كنت أرغب في العيش في المأوى. اعتقدت أنني إذا ما عشت بالقرب منك، فإن علاماتي الهزيلة ستتحسن، وكذلك إيماني سيرتفع. أخبرتها مرات عديدة أنني لا أريد الذهاب، لكنك تعرف شخصية أمي العنيدة. في ذلك العام، بمجرد عودتي إلى المنزل مع دفتر ملاحظات سيئة، تم وضعي في المأوى الذي كان قد مرت ستة أشهر على توليك مسؤولية الإشراف عليه.

كان النظام صارماً. من المرجح أنك أخذت النموذج عن المدارس الغربية أو الثكنات العسكرية. أنا لا أحاول اختلاق الأعذار، لكن على الرغم من جهودي كان كل شيء يسير على عكس ما كنت أتمناه. لم أكن أعتقد أن ما هو جيد بالنسبة لي، كما تقول، كان جيداً حقاً. كنت تتهمني بالضعف، حتى عندما كنت أتصرف دون التفكير بشكل خاطئ. أردت أن تعيد نحتي دون التفكير في أن المطرقة يمكن أن تسحقني.

إذا بدأت في سرد كل القصص، واحدة تلو الأخرى، فلن يكون لذلك نهاية. هل تتذكر تلك الحكاية؟

المقيمون في المأوى (معظمهم من الطلاب الشباب، باستثناء الصبي - ن - وأنا) يستيقظون في السادسة صباحاً للذهاب إلى القداس كل يوم، ثم يصعدون الجبل الرابض خلف الإقامة لممارسة الركض، قبل الذهاب لتناول الإفطار. يا له من تعذيب بالنسبة لي إلى جانب طلاب أقوياء، أو إلى جانبك أنت الذي ضهرت في المدرسة العسكرية. بسبب قصبتي الهوائية الهشة منذ الطفولة، كنت أشعر على الفور بالدوار وبضيق التنفس. وبعد الجري، كانت جبهتي تسيل عرقاً لزجاً، وشهيتي للأكل تختفي تماماً. غالباً ما كنت أشعر بالضعف، فاستحضرتُ طرقاً ذكية لتجنب الجري؟ لكنك

اكتشفت ذلك وأخبرتني أنه لا يوجد سبب يمنعني من فعل نفس الأشياء مثل الصبي
- ن - لا يمكنك الاعتراف، مع تكوينك القوي، بالصعوبة التي يمثلها مثل هذا التدريب
لطفل ضعيف البنية مثلي.

من أجل أن تصبح صلباً قوياً يجب أن تركض. أنت لا تبذل أي جهد.

شخص أناني لا يحب التدريب مع الآخرين، هكذا كنت تراني.

بعد العودة، تلقي علينا خطبتك التي غالباً ما أنام خلالها. ثم، أثناء صلاة العشاء
في الكنيسة، أغفو. كنت منهكا باستمرار خلال الدروس والتدريب الصارم للمدرسة،
لذلك كان من الصعب علي أن أستوعب أي شيء عن اللاهوت.

ذات مساء، نمت كالمعتاد بينما كان الآخرون يستمعون إليك. كان شخيري ضعيفاً،
وعلى الرغم من أن مقعدي في الجزء الخلفي من الفصل، فقد لاحظت ذلك وتوقفت
فجأة. ربت - ن - الذي كان يجلس بجواري على جنبي بهدوء ففتحت عيني على
اتساعهما. تملكني خجل شديد بعد أن رأيت سترتي مبلة باللعب الذي سال من فمي
أثناء نومي. قهقهه الطلاب، لكنهم توقفوا في الحال عند رؤية نظرتك الغاضبة. وفجأة،
رفعت يدك وصرخت باليابانية: «اخرج!»

كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها وجهك محتقنا من شدة الغضب وتصرخ
بتلك الطريقة. وجهك المعهود بابتسامته اللطيفة أمام والدتي أو خالتي أو المخلصين
الآخرين، تشوهت قسماته من شدة الغضب.

لم يكن نعاسي هو الذي أثار غضبك، كما أوضحت لاحقاً لأمي، ولكن كون أنني
كنت أستغل ضعف الجسدي كذريعة لعدم احترام قواعد الجماعة. هذا صحيح،
أعترف أنني كنت أتهرب من تطبيق الجدول الزمني للمأوى كلما أتاحت لي الفرصة
ذلك. أعترف أنني لم أكن أبذل من الجهد ما يكفي. وصحيح أنني لم يكن لدي القدرة
الجسدية على تطبيق المبادئ المثالية التي في عهدتك. أنا لا أبحث عن الأعذار. لكن
رزانتك الصارمة التي كانت تنجح مع الأقوياء، كانت قاسية على الضعفاء، وبدلاً من
أن تعطي نتائج جيدة، تصيبهم بجروح لا لزوم لها.

أخيذاً، بعد أقل من عشرة أشهر من دخولي، غادرت المأوى وعدت إلى والدتي. عاطفة الأمومة جعلتها تسعى جاهدة لإيجاد صفات حسنة لابنها الذي لا قيمة له، بينما بدا أنك كنت لا تملك سوى الازدراء لي. لم يتغير موقفك من الماضي، لكن حديثك معي أصبح قليلاً. وهكذا، انهار حلم أُمِّي بأن أصبح راهباً مثلك.

أعيد قراءة ما كتبته حتى الآن وأخشى أن يحدث سوء فهم بيننا. وعكس ما قد يفهم من ذلك، لن أنسى أبداً لطفك وعنايتك بأُمِّي وبي أيضاً. بفضلك تم إنقاذ والدتي من اكتئاب ما بعد الطلاق، وتمكنت من تكريس نفسها للدين الذي حافظ عليها حتى وفاتها. ممتن لك إلى الأبد لمساعدتها بطرق مختلفة حتى النهاية.

لكن ما أعنيه لا علاقة له بذلك. إذا كان في الرجال ضعفاء وأقوياء، فأنت كنت تنتمي إلى الفئة الثانية. أما أنا فكنت ضعيفاً واهن الجسم. كنت تؤمن بقوتك الجسدية والعقلية وبعقيدتك؛ كنت تقوم بعملك التبشيري في اليابان بحماسة، بخلافي أنا، كنت أفترق إلى الثقة في نفسي.

وأنا أكتب ذلك، أعتقد أن الآن يمكنك فهم الموقف. لكن في الماضي كنت ستهز رأسك دليل رفض. كنت ستصرخ بنبرة قوية أن الإنسان يوجد على الأرض من أجل النضال طوال حياته ليرتفع مستواه في كل مرة أكثر.

ألم تعلم، بعد خمسة عشر عاماً، أن الفخاخ غير المتوقعة، الهشة مثل طبقة رقيقة من الجليد، تختبئ داخل هذه القوة وأن الدين الحقيقي يبدأ بمعرفة هذه المخاطر؟

ماتت أُمِّي بينما كنت أنهي الجزء الأول من التعليم الثانوي. مررت إلى المستوى الأعلى بصعوبة شديدة، غير قادر على دخول مدرسة ممتازة. لقد اجتزت امتحانات القبول واحدة تلو الأخرى، وفشلت في كل مرة، إلى درجة أن أُمِّي، وقد سئمت من توبيخي، تنهدت بقوة معلنة استسلامها للأمر الواقع. واليوم، وأنا أستحضر ملامحها، أشعر بوخز في الصدر. كانت تتعب بسرعة وتشتكي من دوخة عرضية. وذات يوم رافقتها إلى المستشفى، حيث وجدوا ضغط الدم عندها مرتفعاً. ومع ذلك، رفضت وقف أنشطتها، واستمرت تذهب كل صباح إلى القديس وتعيش حياة صارمة.

كنت في السينما مع صديق عندما ماتت. كنت أخبرتها أنني التحقت بمدرسة إعدادية، والحقيقة أنني كنت أمضي الجزء الأكبر من اليوم مع الأصدقاء في مقاهي حي (سنوميا) أو في السينما.

كان ذلك في أواخر ديسمبر، وعندما غادرنا قاعة السينما كان الظلام شديد القتامة. هاتفك أمني لأخبرها أنه كان لدي اختبار تجريبي. ولدهشتي، كنت أنت الذي يجيب عبر الهاتف. كانت أمني قد سقطت في الشارع، وبمجرد توصلك بالخبر، هرعت، وتشكلت مجموعات للبحث عني. عندما سألتني، «أين أنت؟» أغلقت الخط فجأة. بدت لي رحلة العودة إلى المنزل مع قطار (هانكيو) لا نهاية لها. لم يسبق لي أن ركضت بأقصى سرعتي من المحطة إلى المنزل. قرع جرس الباب، فتحته وهمست، «انتهى الأمر». كانت أمني مستلقية على سريرها، وآثار ألم طفيفة مرسومة بين حاجبيها.

كانت خالتي وبعض أتباع الكنسية حاضرين؛ وأنا أشعر بنظرات اللوم الثقيلة تنزل علي، كنت أحملق إلى الوجه الشمعي لأمني. كان عقلي في تلك اللحظة صافيا بشكل غريب؛ لم أشعر لا بالحزن ولا بالتعاسة. كنت فقط في حالة ذهول، كنت أنت أيضا صامتة. أما الآخرون فكانوا يبكون.

بعد الجنازة، وبعد أن غادر الجميع، وجدنا أنفسنا نحن الثلاثة، خالتي، أنت وأنا، في المنزل الفارغ. كان لا بد من اتخاذ قرار بشأن مستقبلي. بدوت مرتبكا أكثر مني، كما لو كنت قد فقدت شخصا عزيزا غاليا. وعندما سألتني خالتي عما أريد أن أفعله، أخبرتها أنني لا أريد أن أكون مصدر قلق للآخرين، لذلك اقترحت علي الذهاب للعيش مع والدي.

وأخيرا، رفعت رأسك، يبدو عليك الإحراج، وقلت إن كل شيء سيتم وفقا لإرادتي. وتقرر أن تشرح أنت الوضع لوالدي.

تركنت تعتني بالمنزل مع خالتي وذهبت للعيش مع والدي في طوكيو. في ذلك اليوم بدأت حياة جديدة معه ومع زوجته الثانية: لم أكن أعتبرهما أبوين. فهمت لماذا انفصلت والدي عنه. كان يردد باستمرار:

"الرداءة أفضل وسيلة. السعادة هي تجنب إحداث الهزات والصدمات في حياتك."

في أيام الإجازة من الشركة التي كان يديرها، كان يهتم بنباتات (بونساي)، ويتعهد الحديقة، ويستمتع إلى مباريات البيسبول على الراديو. تلك كانت حياته. أما فيما يتعلق بمستقبلي، حاول بلا كلل إقناعي بأن أعمل على إيجاد حرفة تضمن لي راتباً عن طريق اختيار المسار السهل. الحياة معه لا علاقة لها بالأيام الصارمة التي قضيتها مع أمي: صباحات الشتاء عندما نسير على الطريق الصلبة جراء الصقيع للذهاب إلى الكنيسة، الكنيسة التي نركع فيها مع الصحبة الوحيدة للمراتين العجوزين والراهب الفرنسي المتجه بوجهه إلى الصليب الذي أسال عليه المسيح دمه.

في بيت والدي، كنا نتحدث فقط عن الراديو الصاخب للجار أو عن تقلص حصص الأرز، ولا نتفوه بكلمة واحدة عن الحياة أو الدين. علمتني والدتي أن الأشياء المقدسة هي أغلى الأشياء على وجه الأرض، في حين أن مجرد الحديث عنها في حضور والدي كان كافياً لجعله يشيح بنظره بعيداً، فيجعلني أبدو مثل الأحمق. ولأنني كنت أعيش في محيط لا يؤمن إلا بما هو مادي صرف، كنت أشعر وكأنني أخون أمي كل يوم. على الرغم من أن الحياة كانت صعبة معها، إلا أنني ظللت أفكر فيها بشوق. الشيء الوحيد الذي كان يهدئ ضميري المعذب إلى حد ما، هو الرسائل التي كنت أكتبها إليك، لأنك حتى وفاتها كنت أكثر شخصاً احترامته. كان لدي انطباع، وإلى فترة قصيرة، فيما يتعلق بهذه الخيانة، بأنني أبرئ نفسي من الذنب بكتابة تلك الرسائل.

كنت تجيبني من وقت لآخر برسائل قصيرة. كان والدي يغضب لرؤية مظاريف تحمل خط يدك. وأكد أنه كان غير سعيد لمعرفة أن ذكرى زوجته وكلماتها مازالت راسخة في ذاكرتي، وأني مازلت قريباً من أتباعك المخلصين. وهو ينظر بعيداً كان يغمغم ساخطاً: «لا يجب أن تراسل هؤلاء الرهبان عديمي الفائدة». في العام التالي، تدبرث أمر قبولي في جامعة خاصة، وأبلغتني بتعيينك في مدرسة دينية في طوكيو.

جن الليل. زوجتي وطفلي في البيت ينمان عميقا. أسترجع الماضي جزءا فجزءا لأجل كتابة هذه الرسالة. لكن عندما أعود إلى ذاتي مرة أخرى، أدرك كم الحقائق التي لا يمكنني الكشف عنها. ما كنت أتصور أن الحديث عنك وعن أمي أمر صعب جدا.

إذا كنت أريد أن أقول كل شيء، يجب أن أنتظر اللحظة التي لن يتأذى فيها أحد من قصتي، وقبل كل شيء يجب أن أستسلم للبوح تماما. أنت وأمي متجذران عميقا في حياتي لدرجة أنني لا أستطيع الانسلاخ عنكما. أريد أن أبرز في روايتي البصمات التي تركها كلاكما علي ووصف ما هو أساسي.

لكن، إذا أردت أن أكمل قصتي، يجب أن أعود إلى حيث توقفت عن الحكى.

فبمجرد وصولي إلى طوكيو، ذهبت على الفور لزيارتك. كنت دائما كما أنت، لم يكن لديك حتى اللون الباهت، لون الأنيميا الذي نراه في وجوه الكهنة أو الإكليريكيين الآخرين. حذاؤك ملمع بعناية، والبدلة السوداء التي تغطي جسمك الرائع مكوية بشكل جيد. تحدثت معي بثقة النفس المعهودة فيك، وكنت سعيدا لأنني أصبحت أسير على الطريق الصحيح والتحقت بجامعة. وعندما سألتني: "هل تؤمن بالرب؟ هل تذهب دائما إلى القديس؟"، والتزمت الصمت حيال ذلك، أظلم وجهك عابسا. خيبة الأمل والازدراء ارتسمت على وجهك كما عندما غادرث المأوى.

رد الفعل هذا، أثار في نفس موقف التمرد الذي بدر عني عندما كنت طفلا. انشغلت بمنصبك الجديد في المدرسة الدينية، فأصبحت لقاءاتنا تقل تدريجيا. لكنك بقيت حاضرا في عقلي. كنت لا أزال أعيش مع والدي، حين نما الشعور الذي كنت أكنه لوالدتي، وتحول الاستياء الذي شعرت به في الماضي إلى حنين، وأصبحت أنظر بمثالية إلى شخصيتها العاطفية. لقد نجحت في أن تغرس في أعماق روح فاشل مثلي ضرورة عيش حياة في عالم رفيع، وأنت، على أقل تقدير، مثلت جزءا كبيرا مما كانت عليه والدتي.

التحقت بقسم الأدب، ربما السبب يعود إلى أمي. عاشت هي وأنت بشكل مختلف عن والدي أو عن معظم الناس. كلما ابتعدت حياتي عن حياتك، كلما أصبحت

مختلفة، وفي كل مرة كنت أفكر فيك كنت أشعر بالخجل.

وفي النهاية، وسّعت الحرب الفجوة بيننا. ذات يوم، كتبت لي أنك مجبر أنت ورجال الدين الأجانب، بأمر من السلطات اليابانية، على مغادرة طوكيو والانتقال إلى (كارويزاوا). الأمر كان أكثر من مجرد "إخلاء"، كان يهدف وبجلاء إلى أن تعيش فيما يشبه معسكر اعتقال تحت مراقبة الشرطة المدنية والعسكرية.

من جهتي، تم إلغاء الدروس الجامعية، فاضطرت، خلال الغارات الجوية التي كانت ترعبني، إلى العمل في مصنع قطع غيار الطائرة الحربية الخفيفة (Zero) في (كاواساكي).

لم يكن من السهل الحصول على تذكرة قطار إلى (كارويزاوا). وفي أحد أيام الشتاء، تمكنت أخيرًا من شراء تذكرة والذهاب إلى هذه البلدة الصغيرة في مقاطعة (شينشو). ما زلت أتذكر البرد الذي يجمد الأذنين عندما نزلت في المحطة. المنتجع الذي ينبض بالحياة بالتأكيد في أوقات السلم، كان مهجورًا ومظلمًا وصامتًا. في مبنى الشرطة العسكرية، الواقع مقابل المحطة، كان ثمة رجلان بعيون ثابتة يستدفئان قرب موقد نار. خيط دخان رقيق كان يتصاعد من شجرة صنوبر عارية، حيث كان غرباء تحتها يطبخون الحساء. استفسرت مكتب جمعيات المدينة عن مقر سكنك، فرافقني المدير إلى مبنى خشبي كبير على الطراز الغربي. كنت مع رفاقك في الحديقة التي جمدها الصقيع. الرجل الذي جاء معي وقف غير بعيد مديرا ظهره لنا. قلت لي، "أنت لا تذهب إلى القديس، أليس كذلك؟ عليك أن تؤمن بالرب."

حتى في هذا المكان، كانت بدلتك، على الرغم من اهترائها، نظيفة بشكل لافت. وكانت أصابعك متورمة بفعل البرد. دخلت المبنى ثم خرجت حاملاً طردًا ملفوفًا في ورق صحيفة.

"خذ هذا معك"، قلت بسرعة، دافعا الطرد في يدي. اقترب الرجل الذي رافقني وسأل بشكل مريب: "ما هذا؟" فأجبت باستياء: "هذه حصتي من الزبدة. هل من الخطأ إعطاء ما يخصني؟"

عدت بعد الحرب، من (كارويزاوا) إلى طوكيو. وتمكنت أنا من تجنب الخدمة العسكرية وغادرت مصنع قطع الغيار للعودة إلى الجامعة التي أصابتها الغارات الجوية. وكان عهد جديد للرهبان المسيحيين قد بدأ في اليابان. رجال مثلك، الذين تم إجلاؤهم أثناء الحرب لأن الشرطة اشتبهت في قيامهم بالتجسس، واصلوا عملهم التبشيري في واحة النهار. وكان اليابانيون يترددون على الكنائس، على أمل إيجاد القوة للعيش أو بحثا عن الطعام أو حيازة أشياء مادية أو مقابلة غرباء. غالبًا ما كنت أراك في ذلك الوقت، تخرج من الندوة، تقود سيارة جيب وأنت تبدو مشغولًا للغاية. كانت مهمتك تقتضي توسيع نطاق المدرسة.

خلال زيارتي لمكتبك، في مبنى له سقف مقوس مصنوع من دورا لومين (مزيج ألمنيوم ونحاس، مادة كانت نادرة في ذلك الوقت) صادفت سكرتيرتك التي كانت غارقة في الرد على مكالمات هاتفية لا تنقطع. كانت تقول مجيبة: «الأب غائب»، أو تقاطع محاورها بجفاء: "لا، لا أعرف متى سيتمكن من رؤيتك!"

إذا كانت كل هذه الوقائع التي استحضرتها لا أهمية لها، وغير مجدية، فذلك لأنني في الواقع أتردد في التطرق إلى صلب هذه الرسالة. لقد وصلت إلى النقطة التي وجب عليّ التطرق إليها، أشعر أن رأس ريشتي أصبح حادا، وأخشى أن أحدث فيك جروحا غائرة، الأمر الذي يمنعني حتى الآن من الكتابة بحرية. سامحني.

كيف يجب أن أصفها؟ لماذا حدث ذلك بهذه الطريقة؟ ما زلت لا أعرف حتى اليوم. أنا لا أفهم التحول الذي حدث فيك.

في قصة قصيرة لـ (سومرست موم) بعنوان "المطر"، يسمح الراهب لنفسه بحب امرأة تدريجياً. ويستخدم المؤلف التعبير المجازي واصفا المطر بالرتيب الذي لانهاية له لرواية قصته. أجد في هذه التقنية الأدبية براعة، لكنني لن أتمكن من استخدامها في حالتك. قال الجميع، "لا أصدق ذلك.... هذا مستحيل". لم أصدق ذلك أنا أيضًا، لكنه كان واقعا حقيقيا. والآن، بعد سنوات عديدة، ليس لدي أي فكرة عما تحول في داخلك.

حدث هذا بعد فترة وجيزة من تخرجي من الجامعة. كنت لا أزال أعيش في منزل

والدي، أتدبر أمري هنا وهناك، وأنجز ترجمات لمجلات تقنية أو مجلات أزياء. على الرغم من رغبتني في أن أصبح كاتبًا، لم يكن لدي ثقة كافية في نفسي. ومن أجل تجنب مرشحات الزفاف اللواتي كان يعرضهن والدي أمامي، كنت أواعد فتاة صغيرة شعرت حيالها بقليل من الصداقة.

عرضت على المرأة التي أصبحت فيما بعد زوجتي، شرطًا واحدًا فقط: "أنا مسيحي غير منضبط، لكن إذا كنتِ تريدين الزواج مني، فلا يمكنك تجاهل ديانتني المسيحية". كنت أتمسك بإيماني بدافع التعلق بأمي. وعلى الرغم من أنني لم أكن أذهب إلى القديس بانتظام واضعًا مسافة بيني وبين الكنيسة، فقد احترمت إيمان والدي والذي تعيش أنت من أجله. لم أفكر أبدًا للحظة في أن أتوقف عن الإيمان، لذلك أتيت إليك لأطلب منك تلقين صديقتي العقيدة المسيحية.

عندما ارتسمت المفاجأة على وجهك، لم أعرف ما إذا كان ذلك بسبب شخص مثلي يقدم على الزواج أم بسبب دعوتي شخصًا آخر إلى اعتناق الديانة المسيحية. قلت: «نعم، بالطبع»، لكنني لاحظت شيئًا غريبًا.

لم تحلق لحيتك جيدًا وحذاؤك كان متسخًا. حالة كهذه، كنت سأمر عليها مرور الكرام لو لاحظتها في راهب آخر، لكن أن ألاحظها فيك أنت، فهذا ما لم أكن أتخيله أبدًا. خلال الحرب وحتى أثناء إقامتك الجبرية في (كارويزاوا)، برهنت عن قوة شخصيتك خلال التجارب التي عشتها. وكان حذاؤك ملمعًا بشكل جيد، ودون أثر لذرة غبار. كنت تحبنا جميعًا في ماوى الطلاب أن نحذو حذوك. ومع إهمالي لهندامي، كنت احتقرك وأحترمك في آن واحد.

رافقتني إلى الباب مع صديقتي. في مكتبك، كانت امرأة تتحدث إلى سكرتيرتك. كانت ترتدي الكيمونو وكانت بشرتها بيضاء بشكل خاص. لم يكن بياض البشرة يعتبر جمالا عند اليابانيين.

استقلت قطارًا ممتلئًا عن آخره إلى مقاطعة (هانشين) حيث كنت أعيش مع والدي. كانت ذاكرها متأصلة في نفسي، وقررت أن أعلن خطوبتي على قبرها، قبل أن أخبر والدي بذلك. كان الحي الذي يقع فيه منزلنا قد تحول إلى رماد بسبب

القصف، وبقيت عائلة خالتي في محافظة (كاغاوا)، حيث تم إجلاؤها. اختفى معظم الأصدقاء الذين حاولت الاتصال بهم. كل ما تبقى من الماضي هو الطريق الذي كنت أسلكه في صمت مع والدتي، وصباحات الشتاء الباردة للذهاب إلى القديس، والكنيسة. حل راهب ياباني محل الراهب الفرنسي السابق، يتلو القديس وحده في الكنيسة المهجورة؛ وظله يتراقص على الجدران على ضوء الشموع. بقيت واقفا أمام المنزل الذي كنت أعيش فيه (يسكنه تايواني أو كوري) أفكر في وجهك الشاحب أثناء جنازة أمي. عندها تساءلت: لماذا أجدك، أنت أيضًا، تبدو تائها ضائعًا؟ في تلك اللحظة لمحت غابة الصنوبر حيث بحثت عن الكلب الذي أجبرتني على أن أتخلى عنه. عادت نظرتة الدامعة والحزينة فجأة إلي. ارتفعت زوبعة من الغبار الأصفر من الأتقاض المتفحمة، بينما رجل يبدو عليه الإنهاك يحفر الأرض بمجرفة.

في تلك الفترة سمعت، لأول مرة، إشاعة سخيفة تتعلق بك. ثم نشر هذه الإشاعة من قبل شخص لا يعرفك على الإطلاق. كان في الإشاعة تلميح إلى أنه على الرغم من أنك تنتمي إلى رجال الدين، إلا أن لديك علاقات تتجاوز حدود اللياقة مع امرأة يابانية. عندما سمعت هذه الشائعة، تذكرت المرأة اليابانية ذات البشرة الشاحبة التي شاهدت بالقرب من بابك. ومع ذلك، فقد كرهت موقف المتدينين اليابانيين بالحكم فقط من خلال المظاهر، وانتقاد الشكل أكثر، والاعتقاد بأنهم الوحيدون على صواب. سخرت من القيل والقال. سخافة! كنت أعرف أي نوع من الرجال أنت، كنت أعرف إرادتك الصلبة. على أي حال، كانت أمي تحترمك وكان من المستحيل وفي أسوأ الحالات، أن تقع في محذور مثل ذلك.

سمعت القيل والقال من مصادر مختلفة. وانتشرت الضوضاء، الممزوجة بفضول مرّضي: لقد رأوك مع امرأة في سيارتك الجيب وكنت تتسوق معها. واجهت متحديا الرجل الذي أخبرني القصة: "ولماذا لا يكونان معًا؟ إذا كان لديك أمور لتقضيها في السوق، فهل من العيب أن تكون معك امرأة!" نظر إليّ بدهشة وقد احمر وجهه.

"لكنها مطلقة! وعلاوة على ذلك فإن لديها طفلًا!"

كان قد توصل بهذه المعلومة بوسيلة ما.

أمي كانت مطلقة ولديها طفل. هذا الكاهن غرس فيها الإيمان، وأظهر لها عالماً مقدساً يسمو فوق الآخرين: ارتفعت هذه الكلمات إلى حافة شفتي لكنني آثرت الصمت. شيء فظيع للغاية كان عالماً أيضاً في حلقي. هل كانت أمي متهمه من طائفة الرهبان هي أيضاً؟ هل كانت هناك شائعة أن شيئاً ما حدث بينها وبينك؟

حدقت في محاورتي وقلت بغضب: "أنا أثق به. أنا أثق به."

هذا صحيح، لقد آمنت بك لأنك طلبت مني ذلك. حتى اليوم، لم أنس كلماتك. هل تتذكر ذلك؟ ولأنني كنت قد فقدت صبري على تحمل القيل والقال، ذهبت إلى مكتبك لأخبرك بالأمر. كنت مشغولاً كالعادة، وعلى الرغم من أنك كنت تبدو حليق الذقن عن كتب، فقد أهملت شيئاً في مظهرك، ولم أتمكن من تحديده. ألقت أشعة الشمس، عبر النافذة، بظلالها على سروالك المكوي بعناية ظاهرة. كان هناك لا أعرف ماذا في مظهرك لم ألاحظه في الماضي. وجالساً أمامك، أخبرتك بالشائعات التي انتشرت. رفعت بصرك إلى الأعلى ثم نظرت في عيني مباشرة. كان من الصعب معرفة ما إذا كنت تستمع إلي أم لا. عندما انهيت كلامي، ظللت صامتاً لفترة من الوقت، فيما كنت أنا أحرق في الظلال على سروالك. ثم قلت بصوت عالٍ: "ثق بي".

لقد كان خطابك كما كان في الماضي، عندما كنت تخطب بحماسة وبيقين أصلب من صخرة:

"آمن بالمسيح. آمن بالرب وبالكنيسة."

هكذا فهمت الأمر. في عيد الفصح عندما غمذت، كررت مثل الأولاد الآخرين: «أنا أو من». لماذا لا أفعل ذلك؟ لماذا أشك في الرجل الذي وثقت به أمي طوال حياتها؟ بعد أن تلقيت الغفران، شعرت بالسلام يملأ قلبي، وهو شعور لم أنعم به منذ فترة طويلة، فابتسمت على الرغم مني.

"إلى اللقاء" أومات برأسك عندما نهضت من الكرسي.

على الرغم من الصعوبات العديدة، تمكنت من إقناع والدي بقبول زواجي، كان شرطه الوحيد: ألا تُجرى مراسم الزواج في كنيسة. كان يسعى بذلك إلى قطع

العلاقات الروحية الموجودة بيني وبين أُمي بأي ثمن. قبلت شرطه السخيف، وبعد التشاور مع خطيبتِي، قررنا إقامة حفلين. يقام أحدهما في فندق مع والدي وأصدقائه، والآخر، نقيمه نحن الاثنين لا غير في الكنيسة. وكانت زوجتي المستقبلية قد قررت بالمناسبة، أن تُعمد. وتم تعيينك بالطبع لتتلو قداس زواجنا.

عشية الحفل "المتواضع" في الفندق، ذهبنا بتكتم إلى مدرستك، ارتدي لباسا عاديا، حتى لا أثير شكوك والدي وترتدي خطيبتِي حلة ذات لون موحد. لم يحضر أي شخص آخر غيرنا حفل الزفاف، ومع ذلك كان الأمر كما لو أن والدتي أعطتنا مباركتها من بعيد. أردت أن أقول لها صارخا بفخر: "ها أنت ترين، على الأقل أصبحت زوجتي متدينة!"

لدى وصولنا إلى المدرسة، وضعت خطيبتِي منديلا ناصع البياض اشتترته دون أن تخبرني، في جيب صدري وعلقت زهرة أوركيد على حلتها. تأثرث غاية التأثر. ثم طلبت منها:

"ادخلي أخبري الأب أننا وصلنا."

انتظرت أمام الكنيسة. كانت السماء صافية. سقوف المباني المقوسة المصنوعة من "دورا لومين"، المحاذية لبعضها البعض، تتألق تحت أشعة الشمس. فكرت في والدتي وابتسمت متسائلا عما كانت ستقوله وهي ترى زوجتي.

كانت التي ستصبح زوجتي تخرج من المدرسة وهي تتقدم نحوي ببطء مرتجفة. وقلت في خاطري بفرح: "إنها متوترة حقًا" وألقيت سيجارتي بعيدًا.

سألتها:

"ما الذي جرى؟ ألم تخبريه أننا وصلنا؟"

لاذت بالصمت، كان التوتر باد على قسمات وجهها.

"هل أنتِ لست على ما يرام؟"

"لا."

"يا لك من فتاة غريبة الأطوار!"

تغيرت ملامح وجهها، وتمسكت بالصمت. ثم ضربت بطرف حذائها الأرض قائلة:

"لأن..."

"لأن ماذا؟"

"هذا ليس الوقت المناسب للحديث عن ذلك. أنا.."

تجعد وجهها وفي الأخير همست: "لقد رأيتهما".

عندما دفعت باب مكتبك لتعلن لك وصولنا، انفصل جسدك مباشرة عن جسد المرأة ذات البشرة الشاحبة التي سبق أن رأيناها ذات مرة عند المدخل. كان وجهها لصق وجهك، غادرت خطيبتي تاركة الباب مفتوحاً دون أن تنبس بكلمة واحدة.

"ماذا تقولين؟" ملأ صدري غضب جارف. «هذا مستحيل!» صفعتها. «أنت أيضاً تصدقين تلك الشائعات السخيفة!"

ضغطت بيدها على خدها الذي صفعته. وعادت كلماتك ببطء إلى ذاكرتي: "ثق

بي!"

الزفاف. كانت عينا خطيبتي حمراوين ومليئتين بالدموع. هل كنت تعتقد في تلك اللحظة، أنها كانت دموع فرح؟ أنا لا أعتقد، ليس من شيمك ذلك. بينما كنت أشاهدك ترتل القديس أمام المذبح، بدا لي كما لو أنني في صراع مع الشك الذي كان يغزوني مثل رغبة قذرة تطفو على سطح بركة. آمن باليسوع. لا يمكنك أن ترتل القديس إذا كنت فعلاً فعلت ذلك. حاولت، حتى في تلك اللحظة، أن أحافظ على الثقة بك.

بعد الزفاف، غالباً ما انتقدت زوجتي لتجهمها كلما استحضرت ذكرى ذاك الصباح. "هل تشكين في الرجل الذي كانت والدتي تثق به؟". كانت زوجتي تهز رأسها رداً على ذلك. غير أن، إذا كان هذا قد حدث بالفعل، فإن الحفل الوحيد في حياتها، حفل زفافها والمفترض أن يكون نقياً، أشرف عليه كاهن يدها قذرتان. كان ذلك قاسياً. لهذا السبب تجنبت رؤيتك لكي أبعث نفسي عن شكوكي. بعد ثلاثة أشهر، وصلني خبر

رحيلك النهائي من المدرسة الدينية.

كيف حدث شيء كهذا؟ كنت مصدوما. وعلى أي حال، كان علي أن أراك وأطلب منك أن تخبرني بكل شيء. كان صدري يملأه الشعور بالخيانة وبالأمل في أن أثق بك مرة أخرى، على الرغم مما قاله الآخرون. ومع ذلك، لم يكن أحد في المدرسة الدينية، يعرف أين غادرت. على الرغم من سخطي من هذا الرد العرضي، لم يكن هناك شيء يمكن القيام به. وفي آخر المطاف، وبعد البحث في كل الاتجاهات، علمت أنك تعيش مع زميل فرنسي يعمل في الاستيراد والتصدير.

أرسلت لك خطابا. وكرد عليه، تلقيت برقية من إسباني يدعي أنه صديقك، يطلب مني باختصار أن أدعك وشأنك.

فهمت أنك لم تعد تريد رؤية أحد.. خاصة أنا. تخيلتك في وحدتك، تعيش في العار والمذلة. وفي النهاية، تركتك وشأنك.

ومع ذلك، فإن الصدمة التي تلقيتها لم تزل. بم يتعلق الأمر بالضبط؟ منذ متى بدأت هذه المسألة السخيفة؟ ظلت أسئلتني معلقة بدون جواب. صورة واحدة فقط صعدت من عمق ذاكرتي: صورة لحيتك الكثة في المرة الأولى التي اصطحبت فيها خطيبتني إلى مكتبك، يفغر خديك ظل بني. هل كنت بالفعل تقف على المنحدر الزلق؟ هل بدأ شيء غير مرئي للعين المجردة يقضم تدريجياً من وجودك وإيمانك؟ كان هذا هو الانطباع الذي لدي. بالطبع، لم يكن سوى نتاج تخيلي السخيف.

إذن لماذا كذبت علي، أنا الذي كنت أفعل كل شيء لأصدقك؟ ورداً على تحذيراتي، كنت تقول لي بصوت واثق: "ثق بي."

كان الغضب والشفقة يطعنان قلبي، بل الغضب جعلني أتخيل شيئاً أكثر فظاعة: كنت تمارس الخداع علي وعلى أمي لفترة طويلة جداً. وفي كل مرة، كنت أهز رأسي غير مصدق.

لم تعد زوجتي تستحضر سيرتك في أحاديثها.

"لن أذهب إلى الكنيسة بعد الآن. فقدت روح الإيمان"

وكل ما تمكنت أن أقوله لها: "هل ستتنكرين للمسيحية برمتها بسبب راهب؟"

لكنني كنت أعلم في أعماقي أن أي إجابة، كيفما كانت، لن ترضيني. لم أكن وحدي؛ العديد من الرهبان والمتدينين الآخرين، كانوا غير قادرين على تقديم تفسير لهذه النازلة غير المتوقعة، تبلدت المشاعر باختصار، لم يعودوا يتحدثون عن ذلك إطلاقاً، دافنين القصة تحت رماد الصمت؛ بعبارة أخرى، كان الأمر كما لو كانوا يضعون ستارا على شيء مقزز.

كان الأمر صعباً بالنسبة لي. لم أستطع أن أتقبل كالأخريين أن تتبدد الشائعة مع الوقت، وأن يطوي النسيان كل شيء. كان هذا يعني نسيانك ونسيان أمي؛ يعني تجاهل ذاك النهر العظيم الذي هو حياتي حتى تلك اللحظة. على عكس معظم معتنقي الديانة المسيحية، لم اختر إيماني بمحض إرادتي. لفترة طويلة، كان إيماني مرتبظاً بالحب الذي أكنه لأمي وبالاحترام الذي ألهمتنني إياه. هذا الجزء من إيماني تمت خيانتته من جذوره. كيف يمكنني محوك من ذاكرتي مثل الآخرين؟

Telegram:@mbooks90

طلبت من الرهبان الآخرين الذهاب لرؤيتك. أردت أن أصدق (كنت ما زلت لا أعرف ما إذا كانت الشائعات صحيحة أم لا) أنك تركت المدرسة الدينية من أجل قضية أكبر، بدافع حب أقوى، من أجل امرأة على سبيل المثال. كنت أنتظر منك أن تثبت لي، في ذلك الوقت وأكثر من ذلك الآن، أن إيمانك قد زاد عما كان عليه.

ومع ذلك، سرعان ما تحطمت هذه الأحلام الصببانية. غالبية الرهبان رفضوا رؤيتك وكنث غاضباً في البداية. هم يرون أن المسيح لا يذهب إلى المباركين السعداء أو إلى الأثرياء، وإنما يذهب إلى الأشخاص الذين يعيشون في وحدة وإلى المذلين. ومع ذلك، اعتقدت أنه في وضعك، لن يتواصل معك أحد. كنت مخطئاً؛ فقد اتصل بك راهب، ولدى عودته كانت إجابته في جملة واحدة: "لا يريد رؤيتك."

كان من الأفضل أن أتركك وشأنك، ألا أستطيع أن أفهم ما تشعر به؟

لدى سماعي رد الراهب، أدركت مدى أنانيتي وافتقاري إلى الحس الإنساني.

هكذا انتهت علاقتي الطويلة بك. مرت ثلاثون سنة منذ اللحظة التي ظهرت فيها في غرفتي في مستشفى الأعمال الخيرية. استرجعت ذاكرتي مواعظك التي تجلب النوم، واليوم الذي حرمتني فيه من كلبتي، ومعاونة التدريب معك في الجبل، وموت والدتي، وأصابعك المتورمة من الصقيع يوم أعطيتني حصتك من الزبدة في (كارويزاوا). كل هذه الذكريات، التي ترسبت واحدة تلو الأخرى مثل الرواسب الأساسية في نهر وجودي، هي البصمات التي يتركها الواحد على الآخر. لا نعرف ما هي البصمة التي نتركها على الآخر، ولا الاتجاه الذي نجعله يتخذه. إنها مثل الرياح ثميل شجرة صنوبر على الشاطئ، وتغيير شكل أغصانها. أنت وأمي، أكثر من أي شخص آخر، قدتماني إلى الطريق الذي سلكته. ثم اختفيتما.

علمت لاحقًا أنك تعطي دروسًا خاصة في اللغة الإسبانية، وأنت كنت مدرسًا للمحادثة في مدرسة للغة الإنجليزية. وأنت أنجبت ولدا مع تلك اليابانية. كانت الصدمة التي تلقيتها بمعرفة هذه الأخبار أخف من تلك التي تلقيتها في المرة الأولى، وما لبث أن أخذ أتباع الكنيسة ينسون تدريجياً الاستياء الذي كانوا غارقين فيه.

لم نعد نتطرق أنا وزوجتي إلى مراسم الزفاف الثاني. ليس كما لو أنه لم يحدث، إنما لم نعد نذكره. ومع ذلك، بعد العشاء، عندما أمر من المطبخ إلى مكتبي، وأجلس إلى طاولتي بعد إغلاق الباب بعناية، أو عندما أرفع رأسي عن كتابي في الليل، أسمع صوتك فجأة: "ثق بي".

إلى هذا الوقت، أفعل كل شيء للحفاظ على الثقة بك. لهذا السبب تظهر (بالطبع في شكل مقنع) في ثلاث من رواياتي: أحاول إيجاد دوافع لسلوكك. بنفس الطريقة التي أظهرت بها لأمي وجود عالم أرقى، ربما تعثرت بينما كنت تفعل الشيء نفسه مع تلك اليابانية ذات السحنة الشاحبة. لم تدرك أن رأفتك كراهب وحبك كرجل امتزجا شيئًا فشيئًا. كانت ثقتك بنفسك كبيرة جدًا، ولم تعلم أن شجرة صلبة يمكن أن تنكسر فجأة. ربما كانت ثقتك الكبيرة بنفسك هي التي تسببت لك في العثرة. رجل مثلك، عندما يسقط، ينحدر بسرعة إلى الهاوية. كل التخمينات التي فكرت فيها باءت بالفشل جميعها. في النهاية، لا أستطيع أن أفهم ما حدث بالضبط. وحتى مع هذه

التخمينات، لم يهدأ قلبي.

وفي أحد الأيام، بعد سنوات عديدة، رأيتك أخيرًا مرة أخرى. كان ذلك مساء سبت في متجر متعدد الأقسام. كنت أعيش في ذلك الوقت في (كومابا)، قريبًا من طوكيو، وكنت أحيانًا آخذ ابني الصغير إلى سطح هذا المتجر المخصص للألعاب والمحاط بحاجز حماية لتجنب الحوادث، ليقضي وقتًا ممتعًا. صعد طفلي في ذلك اليوم، وهو تلميذ في الابتدائي، إلى دواررة طبق طائر يشاهد، مفتونًا، دميمة تتكلم كلما تم إدخال قطع نقدية في فتحة. طائرات مثبتة على عجلة كبيرة تدور على صوت الموسيقى، صاعدة هابطة، في الوقت الذي كان فيه الآباء يستريحون على كراس أو مقاعد، يراقبون أطفالهم. كنت آنذاك، جالسًا أشرب ببطء كوكا كولا من علبة صفيح وأنا أطلع إحدى الجرائد. رفعت رأسي دون هدف فرأيتك من الخلف. في الزوايا الأربع للسطح تم تركيب تلسكوبات يمكن من خلالها رؤية المدينة بأكملها لفترة محددة بـ 10 ينات. من جانبنا أيضًا، كان الأطفال برفقة أولياء أمرهم يتجمعون حول الآلات. كنت تقف بمفردك بين التلسكوبات والدرايزين، تتأمل المدينة. انتشرت كتلة من السحب الرصاصية الكبيرة، تتخللها غربا رقعة من السماء البيضاء سمحت للشمس بتسريب خيط شعاع واحد. كان ذاك شفقا في طوكيو مألوفًا. من المكان حيث كنت جالسًا، بدا جسدك أصغر من المباني والمنازل في البعيد. كانت بعض الشقق مضاءة، وكان الضوء يسطع عبر النوافذ بوهج غريب، على الأرجح بسبب الضباب. ملابس داخلية وأغطية معلقة على النوافذ. لم تكن ترتدي البدلة السوداء والياقة البيضاء لرجل دين، وإنما بدلة رمادية بالية، حسبما أذكر. جسدك، الذي كان مهيبًا جدًا في الماضي، بدا مترهلا، أيمن أن يكون ذلك، ربما، بسبب هندامك؟ سيكون وصفي وقحا إذا قلت إنك بدوت كريفي خرج من قريته. لم أتفاجأ وهذا غريب. بدا الأمر بالنسبة لي طبيعيًا جدًا وواضحًا. ولا أدري لماذا.

انعدمت فيك الطمأنينة التي كنت تشعر بها أيام زمان، وفي ذلك المساء، لم ينتبه لك أي أحد، لم يكلمك أي من الآباء والأطفال الذين صعدوا إلى سطح المتجر الكبير لتزجية الوقت. ودون شعور، قمت من مجلسي. في تلك اللحظة، اقتربت منك امرأة ليست غريبة علي، تسحب طفلًا يرتدي سترة بيضاء من يده. قصدت ما باب الخروج

مديرين الظهر لي، كما لو كنتما تحميان الطفل.

قلت إنني قابلتك، لكن هذا كل شيء. طبعاً لم أخبر زوجتي بذلك. صار هذا اللقاء الذي لا معنى له، في السنوات الأخيرة، يتبادر إلى ذهني ليلاً. عندما أعود بذاكرتي إليك وأنت تدير ظهرك متجاهلاً وجودي، تغمرني الظلال العديدة التي عبرت نهر وجودي. على سبيل المثال، أرى الروسي الأبيض العجوز عندما كنت طفلاً يبيع الخبز في مدينة (داليان) أو أرى الكهل الغريب يتسلل إلى بيت الراهب ساحباً ساقيه المتعبتين. (هو أيضاً مثلك تم طرده من الكنيسة بسبب زواجه) في إحدى ليالي الصيف وأنا أحاول الهروب، وأخبرني ألا أخاف منه. كانت عيناه الحزبتان تشبهان عيني كلبى الهجين الذي أجبرتي على أن أتخلى عنه.

لماذا نظرة الحيوانات والطيور مليئة بهذا الحزن؟ لا يسعني إلا الاعتقاد أن روابط دم تم إنشاؤها من كل هذا وأقامت قيوداً في داخلي. في الوقت ذاته، إذا اعتبرت هذا القيد، فأنت لست راهباً قوياً، مليئاً بالطمأنينة والحماسة، ولا الرجل الذي يقف بين الشقق المضيئة والمنازل التي يتدلى من نوافذها غسيل الملابس والمناشف، لتحكم على الوجود البادي من الأعلى، ولكن شخصاً بعيون مثل عيون كلب متخلى عنه.

وعلى الرغم من خيانتك، فإن استيائي لم يعد قوياً كما كان من ذي قبل. في الواقع، الشخص الذي كنت أثق به في الماضي هو نفس الشخص الذي جاء إلى المطعم الصغير، في ذلك اليوم الممطر في شيبويا. أو ربما كنت تعرف ذلك سلفاً؟ لأنه بعد أن أحضرت لك النادلة طلبك، رسمت الصليب على صدرك بسرعة وتكتم. إنه في نهاية الأمر الشيء الوحيد الذي أفهمه منك.

العشاء الأخير

- دكتور! "صاح رجل يدعى (تسوكادا) يجلس بجواري في مطعم.

إثر صياحه، رفع الطباخ رأسه، يحمل في يده سكيناً (1)، ومال ناحيتي ليخبرني أن هذا الرجل معروف في المطعم بإدمانه الشديد للكحول.

نظرت إليه بحياد تام راسماً على وجهي ابتسامة خافتة، وسألته بنبرة لم تكن مرحبة للغاية:

- ماذا تريد؟

ثم بحثت بعيني عن مقعد فارغ بقصد تغيير المكان في حال ما إذا بالغ في إزعاجي.

- أنت طبيب، أليس كذلك؟ ما هو تخصصك؟

كانت نبرة صوته متعجرفة مع أننا لا نلتقي سوى من حين لآخر في هذا المطعم.

- أنا طبيب نفسي

- إذا أنت تعتنى بالعصابيين؟

سألني، وهدق في وجهي مضيقاً عينيه الصفراوين. كانت نظرتي، القاتمة والحزينة، هي نفسها نظرة المرضى الذين، خلال الاستشارة الأولى، يختبرونني قبل أن يثقوا في ويبوحون بما يعذب أنفسهم.

- يمكن للطبيب النفسي أن يعرف أيضاً ما يحدث في الجسد، أليس كذلك؟

- نعم، لقد درست ذلك في الكلية....

- لذلك سأطرح عليك سؤالاً. في هذه الأيام، أشعر بقليل من الألم هنا، ما سبب ذلك

بطريقة أو بأخرى، كطبيب، يفاجئني الناس أحياناً بطرح هذا السؤال علي، حتى

خارج المستشفى. من المستحيل بالنسبة لي، دون فحص، أن أعطي تشخيصًا، بالإضافة إلى أن اليوم هو الوحيد في أيام الأسبوع، الذي أهرب فيه بعيدا عن معاناة مرضاي، لأمنح نفسي كآسا من الساكي. ولاكون صادقا، فإن الانزعاج كان باديا في وجهي. ولكن في تلك اللحظة، تبادر إلى ذهني فجأة قول البروفيسور (جيسيل)، أستاذي أثناء دراستي في جامعة ستانفورد كباحث أجنبي، قبل ثماني سنوات.

"كونك طبيبًا هذا لا يمثل مهنة، أنت مثل راهب تماما، مهمتك تحمل بؤس العالم."

يا لأقوال البروفيسور (جيسيل) ذات الرنين الرائع!

سألت كابحا نفاذ صبري، بصوت منخفض حتى لا يسمعه أحد ("كيفما كان المريض، فإن المرض سري دائمًا"، كانت هذه لازمة أخرى للأكاديمي الأمريكي):

- أين تشعر بالألم؟

- هنا

- هل يمكنني اللمس؟

- طبعًا

استرق الطباخ نظرة خاطفة إلينا متظاهرا بأنه لا يلاحظ أي شيء. انحنيت إلى الأمام، فتحت قميصه وضغطت على المنطقة إلى اليمين، أسفل الضلوع، فتحركت كرة تحت أصابعي.

- أرني يدك من فضلك

مد (تسوكادا) يديه كطفل وديع طائع. كان الجلد الجاف داكنًا، والكفان تتخللهما بقع حمراء.

- هل فحصك طبيب مؤخرًا؟

- لا

- ولكن، هناك فحص طبي منتظم في عملك، أليس كذلك؟

- وفقاً للأشعة السينية، ليس هناك مشاكل في الرئتين أو المعدة. لكن بعد كل شيء، هذا الجسد شارك في الحرب.

- هل أجريت فحوصا للبول والدم؟

- إنه أمر مزعج للغاية! في الماضي، كانت استشارة الأطباء تتم دون إجراء أي اختبارات.

- الفحوصات والاختبارات تحدد موضع الداء بدقة. ولأكون معك صريحا، عليك التوقف عن الشرب حالا! لقد تضرر كبدك... إلى حد ما.

في ذلك الوقت، عبرت عيناه المصفرتان عن معاناة طفل محروم من لعبته المفضلة أكثر من الألم. ومع ذلك، كان علي أن أكون معه قاسيا. كان الورم في الجانب الأيمن من البطن علامة على تليف حاد في الكبد. إذا لم يتلق هذا الرجل أي علاج واستمر في الشرب هكذا، فلن يستمر في العيش لأكثر من عامين.

- سيد (تسوكادا)، من فضلك أدعوك لزيارتي في المستشفى وسأعرفك على أخصائي كبد.

أخرجت بطاقة زيارة تحمل اسم المستشفى الذي أعمل فيه ووضعتها في جيب سترته.

- أنت تمزح! صاح مبتعدا عني.

- يفرح الأطباء لرؤية أي مريض! إذا صدقنا كلامهم، فسيكون لدينا جميعا شيء أو شيثان ليسا على ما يرام.

- أنت لست عند طبيب على الإطلاق. علق الطباخ محتجا بابتسامة باردة مدافعا عني.

- الطبيب (ساكاي) كان لطيفا معك سيدي (تسوكادا)، أنت رجل ذو رجاحة عقل، لديك دور مهم في شركتك، أليس كذلك؟ إذا اعتنيت بجسمك، فسوف تتحسن ثم يمكنك بعد ذلك الاستمتاع بالشرب مرة أخرى. أليس هذا أفضل؟

- توقف عن هرائك! أنت تجعل الساكي حامضا في فمي!
أجاب (تسوكادا)، وهو يقف بصعوبة. خفت نادلة لمساعدته.

- أنا ذاهب إلى المنزل الآن!

خرج من المطعم يتعثر بينما الزبائن يحدقون به.

- هل حالة (تسوكادا) سيئة حقا؟ سأل الطباخ قلقا.

أومات برأسي وقلت:

- إنه أمر مؤسف، لا يخدم مصلحة مطعمك، لكن لا يجب أن تدعه يشرب الكحول بعد الآن.

- لن يكون الأمر سهلاً لأنه مدمن حقيقي. رد الطباخ مشفقا.

في يوم الاثنين التالي، كنت أشك في أن يأتي (تسوكادا) إلى المستشفى. كنت أتحدث مع مريضة لي بها معرفة قديمة.

على عكس الأطباء النفسيين اليابانيين الآخرين، كنت قد درست أساليب (يونغ). استمع إلى مرضاي وهم يصفون أحلامهم وأجعلهم ينشؤون حدائق مصغرة حيث أبحث عن جروح حدثت في اللاوعي مطمورة في أعماق قلوبهم.

كانت المرأة المعنية تبلغ من العمر ستين عامًا تقريبًا وأخبرتني أنها تريد الطلاق من زوجها الذي عاشت معه لفترة طويلة. في السنوات الأولى، كان زوجها لا يفعل إلا ما يمليه عليه رأسه وهذا تسبب لها في معاناة كثيرة. ومع مرور الوقت، لم يعد يجد أحدا يعتمد عليه سوى زوجته، فأنزل كل حملة عليها، فأصبحت غير قادرة على تحمل أنانيته أكثر.

طلاق زوجين عجوزين لم يكن شائعا في الماضي، لكنه في الوقت الحاضر ظاهرة حديثة في مجتمعنا.

أرى هذه المريضة بانتظام وأستمع إليها دون أن أنطق بكلمة وهي تخبرني عن

استيائها من زوجها. الإنصات لبوح المرضى هو نوع من العلاج.

وبينما كنت أصحبها إلى الخارج، أخبرتني الممرضة بضيق:

- شخص اسمه (تسوكادا) يريد رؤيتك بالحاح.... إنه في قاعة الانتظار.

- آه، حسنا؟ أذهب على الفور

أجبت بنبرة متحمسة. الحادث غير السار الذي تعرض له (تسوكادا) قبل يومين، لم يحدث من أجل لا شيء.

عندما دخلت القاعة، وجدت (تسوكادا) مختلفًا تمامًا، قام باحترام. خفض رأسه وقال:

- أول أمس... تصرفت بطريقة بغيضة.

- لا، لا. أنا سعيد لأنك أتيت. سأقوم على الفور بإخطار شخص ما من قسم الأمراض الداخلية والاتصال بطبيب أعرفه.

- شكرا.

أجابني مضطربا وحقق بي وأنا أعطي التعليمات للممرضة التي أخذته إلى مكتب تسجيل المرضى الجدد.

شعرت وكأنني قمت مرة أخرى بواجبي كطبيب. في وقتنا الحاضر، حتى مع تليف كبدي جد متقدم، يمكن للمريض أن يطيل حياته لخمس أو ست سنوات باتباع نظام حمية صارما. لهذا، كان علي أن أجعل (تسوكادا) يتوقف عن الشرب.

بعد ظهر اليوم التالي، بالقرب من مختبر التحاليل، التقيت مصادفة بالدكتور (كيغوتشي)، الملحق بقسم الأمراض الباطنية، والذي كنت طلبت منه تعهد (تسوكادا). كان يتحدث إلى طبيب أجنبي، شاب صغير القامة ويتحدث بخجل بلغة يابانية غير سليمة.

عند رؤيته لي، تذكرني وأكد مخاوفي بالقول:

- ليس لدي بعد نتائج الفحوصات، لكن هذا المريض في حالة سيئة. حتى الآن، ليس لديه دوالي في المريء ولا يتقيأ الدم. إنه أمر غريب... في الوقت الحالي، دعونا نجرب alo A ومضاد للفيروسات.

وتابع بنبرة محرجة بعض الشيء:

- هل تحتاج متطوعاً في قسمك؟ السيد (إيشنيك) جاء لمعرفة ما إذا كان بإمكانه رعاية المرضى كمتطوع في المستشفى.

رفضت برأسي وأنا أبتسم متوتراً قليلاً.

بدأ أن الدكتور (كيغوتشي) يهتم للمريض، وعندما علمت لاحقاً أن (تسوكادا) لم يعد يُشاهد في المطعم، شعرت بالاطمئنان.

- ماذا يحدث حقاً؟ سألتني الطباخ عندما عدت إلى المطعم بعد غياب طويل.

وأضاف:

- أشعر بالوحدة قليلاً عندما ينقطع زبون كان يستمتع بالشراب عن المجيء فجأة.

- غيابه ليس عبثاً. إنه من أجل صحته.

- أعلم ذلك. كان حقاً يشرب مثل سمكة!

ومضى يقول إنه مقارنة بالزبائن الآخرين، كان (تسوكادا) يكرع كأسه دفعة واحدة بدلاً من تذوقه. يبدو أنه كان يفعل كل شيء ليسكر في أسرع وقت ممكن. كما لو أنه يشرب لينسى معاناة يحملها في داخله.

بقي هذا القول راسخاً في ذاكرتي. يعتقد العديد من المرضى أنهم كانوا يخدعون معاناتهم بالكحول. استرجعت المحادثة المثيرة بين (تسوكادا)، الطباخ وأنا، ثم خياله الموشوم بالوحدة وهو يغادر المطعم.

مر أسبوعان. بعد ظهر يوم السبت، اتصلت بـ (كيغوتشي) وذهبت إلى قسم الأمراض الباطنية لمعرفة نتيجة فحوصات (تسوكادا). هناك صادفت الشاب

(إيشنيك) المتطوع، يرتدي وزرة بيضاء، يخرج من غرفة الفحص يدفع رجلاً مسنًا على كرسي متحرك. توقفت للحظة وصرخت:

- أوه! أنت متطوع هنا!

لأكون صادقًا، فإن مستشفانا ينظر بعين الريبة للمتطوعين العاملين في مختلف الأقسام، بسبب بعض الحوادث التي حدثت مع المرضى.

- نعم وأنا سعيد

أجاب الشاب بلكنة أوروبية وبتأكيد قوي وهو يبتسم.

في تلك اللحظة، ظهر (كيفوتشي) الذي أنهى لتوه استشارته مع مرضى خارجيين، وانتهى من تعقيم يديه.

سألته:

- يبدو أن النتائج سيئة، أليس كذلك؟

أجاب بحسرة:

- ظهرت وذمة في البطن. نصحته بالبقاء في المستشفى، لكنه كره ذلك.

- أحقا؟

ناقشنا للحظة العلاج الذي سيتم إعطاؤه لـ (تسوكادا)، ثم غيرت موضوع المحادثة:

- يبدو أن الأجنبي الذي رأيتَه آخر مرة يعمل كمتطوع.

- نعم. أنت تتحدث عن (إيشنيك). لقد ألح عليّ كثيرًا لدرجة أن الأمر انتهى بي إلى تقديمه لرئيسة الممرضات، ولقد أعجب به الموظفون كثيرًا. إنه وديع ولطيف مع كل المرضى.

- يا له من رجل غريب! لماذا يريد التطوع في مستشفى ياباني؟ هل تعتقد أن

بداخله بذرة راهب يبحث عن عمل صالح؟

- لا على الإطلاق. إنه في طوكيو يعمل في شركة استيراد وتصدير أرجنتينيه. لهذا السبب يأتي بعد ظهر يوم السبت فقط، مثل اليوم.

في بلدان أخرى، يعمل كثير من الرجال والنساء، دون وضع خاص أو حتى أي سبب ديني معين، كمتطوعين في المستشفيات. ومن المؤكد أن (إيشنيك) واحد مثلهم.

يكون المستشفى صاخبا للغاية طيلة أيام الأسبوع، عدا يوم السبت، في هذا اليوم يصبح المستشفى فجأة هادئا. إنه اليوم الذي لا ترى فيه أي شخص في الأجنحة. كونشيرتو موزارت للبيانو رقم 27 يُسمع ضعيفا في الممر. أحببت كثيرا الاستماع إليه أثناء دراستي في الخارج، والآن يبدو أن شخصا من قسم الأمراض الباطنية يستمع إليه على الراديو أثناء فترة الاستراحة...

اتصل بي (كيغوتشي) على الهاتف في المكتب.

"يتعلق الأمر بالسيد (تسوكادا). يبدو أنه لا يزال يشرب."

"أحقا؟"

عبست دون وعي. شرب الكحول بالنسبة لمريض مصاب بتليف الكبد يعد انتهازا. لهذا السبب أنا و(كيغوتشي) منعنا (تسوكادا) من القيام بذلك.

"ومع ذلك..."

كنت أود أن قول شيئا ثم أحجمت.

لقد طمأنني عدم رؤيته في المطعم، لكن اطمئناني لم يكن في محله.

"إذا لم يستطع التوقف عن الشرب، تابع (كيغوتشي)، مرتبكا، فلدواع نفسية. في هذه الحالة، لا أستطيع أن أفعل أي شيء له. سيكون ذلك من اختصاصك. ما رأيك في فحصه؟"

بعد إنهاء المكالمة، فكرت مرة أخرى في كلام الطباخ، حول تجاوزات (تسوكادا):
" إنه يفعل كل شيء ليسكر في أسرع وقت ممكن. كما لو أنه يشرب لينسى معاناة
يحملها في داخله."

العديد من مدمني الكحول يلجؤون للشرب يوميًا قصد التخفيف من معاناتهم
النفسية، ولن يكون (تسوكادا) الوحيد الذي على هذه الحالة.

سلم لي (كيغوتشي) ملف (تسوكادا) الطبي، وبدلاً من دراسة أعراض المرض،
ركزت على عمله وعائلته وسوابقه.

كانت المعلومات الواردة في سجله مقتضبة: ولد في (كيوشو) ويعمل الآن
كمراقب في شركة أغذية. يعيش مع زوجته بمفردهما، ولديه ولدان يعيشان
مستقلين عنهما.

هذه المعلومات، رغم ضآلتها، مفيدة دائماً للطبيب، خاصة إذا كان معالجاً نفسياً
مثلي.

في الأسبوع التالي، حوالي الظهر، وبأمر من (كيغوتشي)، جاء (تسوكادا)، الذي لم
أره منذ فترة طويلة، إلى مكتبي. نظرة واحدة كانت كافية لألاحظ أن وجهه، الذي
كان من قبل شاحباً، أصبح منتفخاً.

- من فضلك تقبل اعتذاري عن كل المشاكل التي أسببها لك.

قال وهو يجلس. وضع يديه على فخذه وحنى رأسه حتى قارب ركبتيه.

هذا الرجل اللطيف، الذي أمامي الآن، لا علاقة له بالسكير الذي قابلته من قبل.

- سيدي (تسوكادا)، هل حقاً لا تريد المكوث في المستشفى للعلاج؟ إذا بقيت في
المنزل، فلن تتمكن من مقاومة الشرب. من الأفضل أن تبقى في المستشفى.

قلت له بهدوء محاولاً خلق مجال للتفاهم.

أجاب بتوتر وهو يهز رأسه ذي الوجه المتورم:

- لا. إذا عدت إلى المستشفى، ستزداد حالتني سوءًا

بعد أن أدركت أنه متشبه بموقفه، قررت أن أتطرق مباشرة إلى النقطة التالية:

- إذا كان الأمر كذلك، فهل هناك ما يمنعك من التوقف عن الشرب؟

رمشت عيناه دون أن يقول أي شيء. كانت نظرتة قاتمة ذات لون يشبه لون أعماق مستنقع. ظل صامثًا للحظة.

- ما لم يكن هناك سبب معين... لماذا لا تخبرني بما يؤلم قلبك. بصفتي طبيبًا ومعالجًا نفسيًا، فأنا لا أفشي أبدًا أسرار مرضاي.

هز رأسه مرة أخرى بتوتر شديد.

- لا أستطيع أن أقول أي شيء.

- لذا أخبرني بشيء واحد، هل هذا الألم هو سبب إدمانك للكحول؟

لم يرد.

- اطمئن! لقد استمعت لكثير من الألم والعذاب في هذا المكتب. مهما أخبرتني، لن

أتفاجأ. إنه دليل على أنك إنسان.

لا، لا أستطيع. مهما تحاول، فلن أستطيع أن أقول أي شيء.

توترت أعصابه فجأة، ونهض هائجًا.

- لن أعود أبدًا إلى المستشفى!

أضاف كما لو أنه يريد إقناع نفسه، وغادر المكتب. كانت هيئته النحيقة تنبي عن

وحدة غائرة.

ومع ذلك، فقد جعلتني سنوات عديدة من الخبرة متفانلاً، لأنني كنت أعرف أن

غالبية المرضى، مثل (تسوكادا)، رفضوا في البداية الإفصاح عما يختزنونه من أسرار

في أعماقهم. إنهم يعانون العذاب بين الرغبة في التخلص من السر الثقيل الذي

يؤرقهم، والشعور بالألم والإذلال عند إخبار الآخرين بما في دواخلهم. من المحتمل أن تستمر هذه الحيرة بالنسبة لـ (تسوكادا) أسبوعًا.

بعد خمسة أيام، أثبتت توقعاتي صحتها. في ذلك الصباح، عندما رأيت هيئته الهشة في مكثبي، تخيلت الصراع النفسي الذي حدث في داخله، وخاطبته دون وعي مني بصوت مشجع:

- شكرًا لمجيتك. كنت أود رؤيتك

تهالك على كرسي، وبينما كان يتفحص رد فعلي، أخبرني عن أبنائه وعمله الرائع وأيام الماضي المؤلمة، ولكن دون أن يفصح للحظة عن سره الأهم.

هذه ليست مشكلة. كطبيب، كنت أعرف أنه يختبر إجاباتي. كثيرًا ما يستخدم المرضى هذه الوسيلة في البداية ليتخلصوا في النهاية من خجلهم ويكشفون لي عن مكنوناتهم الداخلية. تبع ذلك شهر من الصبر والمثابرة تاركًا (تسوكادا) يتباهى بلا كل متحدثًا عن كل شيء وعن لا شيء.

أعلنت الأشجار الكثيفة بداية الصيف وتعاقت الأيام ذات السحب الكثيفة. في يوم رطب وحار، حوالي الظهر، سمح (تسوكادا) أخيرًا لبعض من سره يتسرب.

- كنت في بورما خلال الحرب، كان الأمر مروغًا.

- سبق لك أن أخبرتني بذلك. في أي موقع حاربت؟

- في نواحي نهر نافو، بالقرب من الحدود. كان أعداؤنا مظليين إنجليز ومحاربون جورخاس (2). نفذت ذخيرتنا تقريبًا وكان الطعام ينقصنا نقصًا شديدًا.

- يبدو أن الحمى كانت موجودة أيضًا في كثير من الأحيان.

تذكرت أنني قرأت، ذات مرة، في إحدى المجلات، مقالًا عن الظروف المأساوية للجبهة في بورما خلال الحرب العالمية الثانية.

- نعم

تمتم، ومسح وجهه من العرق بيد واحدة.

- كانت المستشفيات مليئة بمصابين بجروح خطيرة وبجنود يعانون من الملاريا.
كان ضحايا الزحار(3) مثيرين للشفقة؛ كانوا يفعلونها في السروال طوال اليوم إلى
أن يموتوا.

- وماذا عن الطعام؟

في تلك اللحظة، توقف عن الكلام وقد ارتسمت على وجهه علامة استياء. ثم
رمقني بنظرة جانبية.

- لم يكن لدينا شيء... لا شيء!

- أريد أن أصدقك

- لقد أكلنا كل ما يمكن أكله: لحاء الأشجار، الضفادع الصغيرة، ديدان الأرض.

كانت عيناه ممتلئتان بالغضب.

- دكتور، لم يسبق لك أن شعرت بهذا النوع من الجوع، أليس كذلك؟ لأنك كنت في
الداخل، بعيداً عن جبهة الحرب.

- بلى، في ذلك الوقت، كنت في ملجأ مع والدي ولم يكن هناك الكثير أيضاً لتناوله
في اليابان.

- لكنها لم تكن مماثلة لوضعنا.

أجاب (تسو كادا) وهو يرفع صوته مزمجراً في انفعال شديد. كان نفس الصوت
العنيف الذي صدر منه في أول مقابلة لنا عندما كان في حالة سكر. لقد وجدت هذا
الغضب المفاجئ مثيراً للاستغراب.

كان العرق يغطي وجهه. من الواضح أن صراعاً داخلياً كان يعتدل في داخله.

قلت في نفسي فجأة، لن يطول الوقت؛ سيعترف لي بكل شيء قريباً. حدقت في
وجهه المغمور بالعرق، وقلبي مفعم بالأمل.

خلال المقابلة التالية، أبقى (تسوكادا) وجهه مائلا نحو المطر المتساقط على
النافذة، وباح لي بالسر التالي بنبرة متقطعة:

- دكتور، أثناء الحرب في بورما، أضطر بعض الجنود الجياع إلى أكل اللحم
البشري.

تظاهرت باللامبالاة، بينما شعرت أنني تلقيت لكمة عنيفة أسفل ذقني.

- أعرف قصدك. حوادث مماثلة وقعت في الفلبين وغينيا الجديدة.

- ألا يصدك ذلك؟

- لقد سمعت في هذا المكتب اعترافات أكثر إثارة للدهشة.

ثم، بمهل وبصوت هادئ، لعبت ورقتي الأخيرة:

- إذا أخبرتني، على سبيل المثال، أنك واحد منهم، فلن أتفاجأ.

- أنا؟ أبدا!

وهز رأسه بقوة. عندما نظرت إلى وجهه المرعوب والكئيب مثل مياه مستنقع،
سألته:

- سيدي (تسوكادا)، ألا تشرب من أجل نسيان هذه الذكرى المؤلمة؟

تدفقت الدموع من عينيه وسالت على خديه وبللت ذقنه.

- أرجوك أخبرني. هل هذا صحيح؟

أوما برأسه دون أن يكلف نفسه عناء مسح دموعه.

- بمن كان يتعلق الأمر؟

- بالجندي (ميناميكوا).

- ما علاقتك به؟

- كان صديقي.

ما زلت أتذكر ذلك اليوم بشكل جيد. في الخارج، كان يسقط مطر خفيف محدثا صوتا في التراب، وكان ظل الأشجار أسود أكثر مما هو أخضر، و(تسوكادا) يبوح لي بسره جزءا فجزءا وهو يبكي.

كان ذلك في خريف عام 1944 في بورما، خلال موسم الرطوبة مع استمرار هطول الأمطار دون انقطاع كما هو الحال في اليابان. كانت كتيبته تتعرض للقصف من قبل الجورخاس والجنود الإنجليز على الهضبة التي تحولت إلى مستنقعات بسبب الأمطار الغزيرة.

لم يخرج أحد منتصرا من عمليات القصف ونيران المدفعية، وظل الجيش الياباني المحاصر لمدة يومين صامدا في مواقعه؛ وأخيرا جرت المعركة بالقنابل اليدوية. مات قائد الكتيبة. في تلك الليلة، تمكن (تسوكادا) والآخرين من الهروب عن طريق اجتياز المستنقعات، باتجاه سلسلة جبال (راخين)، خلال تراجع كان جحيقا. والعديد من الجنود، الذين لم يتبق لديهم أحذية، قاموا بتمزيق زيهم الرسمي ولفه حول أقدامهم.

التهم (ميناميكوا) و(تسوكادا) كل ما هو قابل للأكل: بالطبع الثعابين والسحالي، وابتلعا مكرهين براعم الموز أو الديدان. تقلص عدد رفاقهما كل يوم. بعض الجنود، توقفوا عاجزين عن مواصلة السير وبسرعة للاختباء خلف الأشجار، والذين واصلوا تقدمهم في الغابة، كانوا يسمعون خلفهم دوي انفجارات قنابل المنتحرين.

وعلى طول الطريق، انضم إليهم بعض أفراد كتيبة أخرى، وسرعان ما لوحظ أنهم كانوا يأكلون الطعام سراً. أخبروهم أنهم يأكلون لحم السحالي المجفف، بينما لم يكن من السهل اصطياد هذه الحيوانات. اشتبه (تسوكادا) و(ميناميكوا) بشكل مبهم فيما يجري، لكنهما كانا يخشيان قول ذلك بصوت عالٍ لأن الحرب كانت قد قوضت بشدة أعصاب الجميع.

(ميناميكوا)، على الرغم من الحمى التي تسببت له فيها الملاريا، كان يواصل

تم تعيينهما في نفس الفرقة، ومنذ بداية خدمتهما العسكرية، انسجما بشكل جيد. ساعدتهما صداقتهما الحميمة في الحفاظ على حياتهما، حتى إن (ميناميكافا)، الذي تزوج أياما قليلة قبل التحاقه بالخدمة العسكرية، كان يُطلع (تسوكادا) على رسائل زوجته؛ (تسوكادا) الذي حمل، لمدة خمسة أيام مرهقة، رفيقه المريض عبر الغابة والمستنقعات.

في الطريق، رأوا جنودا يابانيين ينهارون على الأرض؛ كان بعضهم يسقط ميتا، وآخرون لا يقوون على النهوض يحدقون فيهم.

في الليلة السابعة من المقاومة التي لم يعد (ميناميكافا) يستطيع تحملها، ناشد رفيقه أن يتركه.

صاح (تسوكادا):

- ماذا تقول؟ ألم أعدك بأننا سننجو ونعود إلى اليابان؟

- أريد العودة أنا أيضا إلى المنزل، لكن جسدي لم يعد قادرا على الاستمرار، اعتن بأسرتي، من فضلك.

رد صديقه (ميناميكافا) باكيا.

في صباح اليوم التالي، عندما استيقظ (تسوكادا)، صرخ وهز بقوة (ميناميكافا) دون جدوى، كان جامدا لا يتحرك. كان رفيقه في السلاح قد لفظ أنفاسه الأخيرة أثناء نوم.

أراد (تسوكادا) دفنه، لكن لم يكن لديه الأدوات اللازمة لحفر حفرة، ولا القوة للقيام بذلك. وإذا أحرق الجثة، يمكن للعدو اكتشاف وجوده. ضم (تسوكادا) يديه إلى صدره مصليا، ثم قطع خصلة من شعر صديقه المتوفى ولحق بالآخرين الذي كانوا يواصلون طريقهم.

في ذلك اليوم الكارثي، ضاعف ألم فقدان صديقه من معاناته الجسدية. تخلف

كثيرا عن رفاقه، وفي اليوم التالي، سار بمفرده وهو يجر قدميه. وبعد الظهر، انضم إليه مجموعة تتكون من ثلاثة أو أربعة رجال لا يعرفهم.

حكى لي (تسوكادا):

"في تلك الليلة، بينما كنت أزحف على الأرض، انزلت أسفل تل، فاصطدم رأسي بشيء وفقدت وعيي. وعندما استفتقت، كان أحد أفراد كتيبة أخرى بجانبني. أرغمني الجندي على أن أشرب ماء موحلا ثم سلمني شيئا أسود ملفوفاً بالورق: كان قطع لحم.

قال لي:

"إنها سحلية. كل!"

وأمام ترددي، أضاف بصوت عالٍ:

"إذا لم تأكل، فستموت! فكر في لحم سحلية وكله!"

وضع (تسوكادا) قطعة في فمه وابتلعها مغلقا عينيه.

عندها أدرك أن الورق الأصفر الذي يلف اللحم الأسود كان رسالة.

كانت لمحة قصيرة جدا كافية له للتعرف على الكتابة الأثوية بالحبر الباهت؛ كان لديه انطباع بتلقيه ضربة عصا. كانت الرسالة إحدى خطابات زوجة (ميناميكافا)، التي عرضها عليه صديقه مرارا.

"اللحم... من أين أخذته؟"

أضاعت ابتسامة صفيقة وجه الجندي. ثم نهض واختفى بعد أن أجاب:

"أممم، من أين، مثلك أتساءل!"

وضع (تسوكادا) إصبعه في فمه وتقيأ؛ لم يخرج من فمه سوى المرارة. حاول النهوض لكنه ترنح على ساقيه اللتين تؤلمانه. غزاه القلق من أن يكون مصيره مثل مصير كل الجرحى الذين التقاهم في الطريق.

همس (تسوكادا) وهو يشاهد من النافذة المطر يتساقط:

"بقيت لمدة ثلاثة أيام مستلقيا حتى شفيت ساقاي. لم يكن هناك شيء أكله... وأخيرًا أخذت اللحم الذي أعطاني إياه الجندي. كان لحم (ميناميكافا). أردت أن أعيش... أن أعيش بأي ثمن!"

ما زلت أتذكر إلى اليوم صوت المطر الناعم الذي كنت أنصت إليه أنا و(تسوكادا) بعد أن توقف عن الكلام.

"بعد التسريح، كنت أنوي الذهاب لرؤية عائلة (ميناميكافا) مع خصلة شعره، لكن هذا كان مستحيلًا بالنسبة لي. حرصت على أن تصل خصلة الشعر إلى زوجته، فأرسلت لي خطاب شكر بخط يدها لا أستطع نسيانه.

بعد شهرين، جاءت لزيارتي مع طفلها. شكرتني مرة أخرى وسألني كيف مرت اللحظات الأخيرة لزوجها.

كانت الذكرى التي تركها رفيقي تتمثل في صبي صغير، حدق في وجهي بعيون مماثلة لعيونه. ما زالت تلك النظرة محفورة في ذاكرتي."

قال (تسوكادا) وهو يغطي وجهه بكف يديه.

- سيدي (تسوكادا)، تشرب كل مساء لكي تنسى تلك النظرة، أليس كذلك؟

- بلى.

- ومع ذلك، هذا الطفل لا يلومك. الأشياء هي ما هي عليه.

شعرت بأن كلمات المواساة التي خاطبته بها كانت ضعيفة جدًا، وبأنه ينبغي ألا أسيء استغلال مريض من خلال هذا المنطق.

في ذلك اليوم، عندما غادر مكتبي، لم ينعكس الارتياح الناجم عن الاعتراف على هيئته، بل على العكس من ذلك كان محاظًا بطوق من العزلة.

في اليوم التالي، اتصل بي (كيغوتشي) عبر الهاتف. كان مستاءً.

- تقياً (تسوكادا) الدم في المنزل. أخشى أن يكون حدث له تمزق في وريد مريئي

...

كان أسوأ شيء يمكن أن يحدث لمريض تليف الكبد.

تخيلته يتقيأ الدم. لا! لم يكن الدم، ولكن لحم رفيقه في السلاح، ونظرات الطفل المطابقة لنظرات والده، وصور الماضي التي جعلته يعاني لمدة أربعين عامًا.

في الوقت الحاضر، العلاج الطبي الوحيد المقبول لدوالي المريء هو العملية التي أجراها البروفيسور س. من جامعة ب. النجاح ليس مضمونًا بنسبة مائة بالمائة ويمكن أن تكون العملية خطيرة.

تم إجراء عملية جراحية لـ (تسوكادا)، وبدا أن حياته قد أنقذت مؤقتًا، لكن التشخيص لم يكن يدعو إلى التفاؤل.

على الرغم من أن غرفته ليست تابعة لقسم الطب النفسي، إلا أنني كنت أزوره من وقت لآخر، عندما أجد لحظة فراغ. كانت زوجته، التي أمضت نصف حياتها في تحمل معاناته، تجلس باستمرار إلى جانب سريريه، سارحة لوحدها في حلم يقظة. في بعض الأحيان يأتي ابنه لزيارته. بمجرد أن يراني، يتقنع وجهه الصارم بابتسامة شاحبة ويتمتم: "دكتور، لقد حصل على ما يستحقه".

لدى سماعي هذه الكلمات، كنت أعلق بسخرية أنه على رغم من الكشف عن سره فإن جروحه لم تلتئم. كنت مدركا ومعترفا بخيبة وألم أن الطب النفسي ليس له أي تأثير على عقول الرجال.

في أحد أيام السبت، عندما خرجت من المصعد، قابلت (إيشنيك)، الشاب المتطوع، ينتظر وصول المصعد مع (تسوكادا) الجالس على كرسي متحرك.

"نحن ذاهبان إلى غرفة الفحص."

قال الشاب بنبرة مرحة. وأشار إلى مريضه الذي كان يبتسم على الرغم من وجهه الشاحب:

" أنا وهو بيننا صداقة متينة."

لم يكن (تسوكادا) يبدو على ما يرام، والظاهر أن الشاب المتطوع (إيشنيك) يبذل قصارى جهده لمساعدته.

كثير من المتعاونين الأجانب في المستشفى كانوا لطفاء.

كل يوم سبت، أسأل نفسي: "لماذا يعمل هذا الشخص، الذي ينتمي إلى شركة مقرها اليابان، كمتطوع؟"

علما أنني كنت أعرف أن في بلدانهم الأصلية، غالبًا ما كان للأجانب هذا النوع من النشاط.

كيف جذب هذا الشاب عنيًا مثل تسوكادا؟ إلى جانب ذلك، كيف تمكن من أن يجعله يبتسم تلك الابتسامة التي لم أرها من قبل عندما كان في مكثبي؟

بصراحة لم أفهم أي شيء. أثارت ذلك في الحسد، أنا الذي يعيش جنبًا إلى جنب مع معاناة الناس.

بعد ذلك، صرت كلما قابلت مريضي، برفقة زوجته و(إيشنيك)، ماشيا ببطء في حديقة المستشفى أو جالسًا في غرفة الانتظار، أنظر إليه بدهشة.

وفقًا لتقرير الطبيب (كيغوتشي)، وعلى الرغم من التغيير المفرح في معنويات المريض، فإن حالة ما بعد الجراحة للدوالي في مريئه لم تتغير حقًا للأفضل.

وأوضح أن هناك أحيانًا دماء في البراز تبعث على القلق. لا أستطيع معرفة السبب، وحتى مع التنظير الداخلي لا أستطيع أن أرى من أين يأتي الدم!"

ونظرًا لتخصصي البعيد عن الأمراض الباطنية، لم أتمكن من مساعدة الطبيب (كيغوتشي)، في حل المشكلة. والشيء الوحيد الذي كان يجب فعله هو مراقبة مستجدات المرض بهدوء.

بعد مرور شهر على العملية، تأكدت مخاوفنا. فقد تقيأ (تسوكادا) مرة أخرى كمية كبيرة من الدم.

هرعت إلى غرفة المريض استجابة لتحذير الدكتور (كيجوتشي). كانت العديد من الممرضات مشغولات في الغرفة الضيقة، وكان في ذراع (تسوكادا) حقن وريدي، وفوقه خيمة أكسجين مثبتة. ومن خلال القماش الشفاف، يظهر الوجه المنهك للمريض شاهداً على الوضع الحرج.

"كيف حاله؟" سألت (كيجوتشي).

"لقول الحقيقة، ستكون هذه الليلة مرحلة حاسمة؛ إذا سارت الأمور على ما يرام الليلة، فقد يكون قادرًا على العيش يومين أو ثلاثة أيام أخرى."

بدت الأرضية، مليئة بآثار الدم، تشبه خريطة عالم كثيرة الاستعمال. نظرة واحدة كانت كافية لتقدير كمية الدم التي تقياً المريض.

لوح بيده بضعف، وكأنه يريد أن يتكلم. عندما اقتربت زوجته من رأسه، احتضن يدها وتحدث معها. أومأت برأسها ثم خاطبت الدكتور (كيجوتشي):

«يود منك دعوة (إيشنيك)».

نظر الطبيب (كيجوتشي) لي محرجاً. فمصلحة المرضى الداخليين لا ترى أجنبياً بعين مرحبة، ليس مسموح لمتطوع، أن يحضر إلى غرفة مريض في مثل هذه الظروف.

قررت وأنا أتذكر مدى الانسجام بين الرجلين:

"لنتصل به."

اتصلت ممرضة برقم هاتف شركة الاستيراد والتصدير حيث يعمل، ثم قالت: "إنه قادم على الفور."

حاولنا الحفاظ على قوى (تسوكادا) حتى وصول (إيشنيك).

على الرغم من أنني لست متخصصاً، إلا أنني تيقنت أن المريض لن يتمكن من العيش أكثر من يومين، كما توقع الدكتور (كيجوتشي).

عندما دخل (إيشنيك) يلهث إلى الغرفة، كان النزيف قد توقف بفضل الحقن، وهذا (تسوكادا) لفترة من الوقت.

تقدم الأجنبي إلى جانب سريره وقال:

"سيدي (تسوكادا)، إنه أنا! (إيشنيك)! سأصلي من أجلك."

ثم دون أن يتخلص من معطفه، ركع على الأرض الملطخة بالدماء.

كتبت من الذاكرة في دفتر ملاحظاتي المحادثة التي جرت في تلك الليلة بين الرجلين. فيما يلي مقتطف منها:

"(إيشنيك)! هل إلهك... موجود؟"

قال (تسوكادا) وهو يلهث داخل خيمة الأكسجين.

"أجل. إنه موجود."

"أنا... في يوم من الأيام، خلال الحرب... قمت بفعل شيء فظيع. هل سيسامحني الرب حقًا؟"

"أجل سيسامحك"

"حتى لو كان فظيعا؟"

"نعم."

"(إيشنيك)، خلال الحرب..."

تردد (تسوكادا) لحظة ثم واصل مرغما:

"في بورما، أكلت لحم صديق ميت. لم يكن هناك شيء لأكله، ولو لم أفعل، لما تمكنت من البقاء على قيد الحياة. هل يغفر الرب حتى لأولئك الذين سقطوا في الجحيم؟"

ظل الدكتور (كيغوتشي) والمرضات مذهولين، مرتبكين من هذا الاعتراف غير

المتوقع. حينئذ فهمت أن زوجة (تسوكادا) كانت على علم بذلك، عندما غمغمت: "هذا الذي يعذبك منذ زمن طويل."

ارتجف (إيشنيك) بعصبية بعد الاستماع إلى اعتراف (تسوكادا)، وظل جامدا في مكانه راكعًا، مغطيا وجهه بكلتا يديه. أما بالنسبة لي، فاسترجعت في تلك اللحظة، الصدمة التي تلقيتها عندما باح لي (تسوكادا) بالسر لأول مرة.

ومع ذلك، يجب أن أقول اليوم إن كل شيء سار بشكل مختلف. من واجبي أن أصف بدقة رد فعل (إيشنيك)، ليس كمارس، ولكن كإنسان، شاهد على زمني. صاح الشاب المتطوع (إيشنيك) واقفا وقد رفع يديه عن وجهه:

"سيدي (تسوكادا) ...

كانت تعابير وجهه قاسية تختلف تماما عن تعابير وجه الشاب المرح الذي يمازح المرضى وهو يدفع بهم الكراسي المتحركة..

".. هل تريد أن تعرف لماذا أتيت إلى اليابان؟"

هز المريض رأسه بوهن داخل خيمة الأكسجين.

"أنا أيضا أكلت لحم صديق."

حتى اليوم، لا أستطيع وصف الصدمة التي هزت غرفة المستشفى. أتذكر فقط ممرضة خرجت إلى الممر تركض باكية...

"قبل أربع سنوات، آنذاك كنت طالبا، ذهبت لزيارة عمي في البرازيل. في رحلة العودة، تكسر محرك، وتعطلت الطائرة التي كانت تحلق فوق جبال الأنديز. وكان الجرحى كثيرين. كانت الجبال عالية جدًا، وبقينا اثني عشر يومًا في الثلج ننتظر المساعدة."

على الرغم من خطابه المتردد، كان صوت (إيشنيك) مليئًا بالحماس. عندها تذكرت ما اطلعت عليه في الصحف قبل أربع سنوات، يحكي عن قصة كارثة جوية حدثت في جبال الأنديز.

"في اليوم الخامس، تم استهلاك جميع الأطعمة التي كانت على متن الطائرة. لم يتبق لدينا ما نأكله. وكل يوم، كان يموت جرحى. الذي كان يجلس جوارى، تحطم صدره وكانت إصابته خطيرة. كان في وقت سابق قد أوضح لي أنه (أب) ذهب إلى اليابان."

قربت فمي من الخيمة وأوضحت لـ (تسوكادا) أن (إيشنيك) يعني بـ (الأب) راهبا كاثوليكيًا.

"كان هذا الرجل يشرب النبيذ فقط وكان في حالة سكر دائم، لم أستطع أن أصدق أنه كان راهبا."

كان (إيشنيك) يتحدث واقفا. لا أعرف لماذا، لكن بينما كنت أثبت نظري في وجهه الصارم، ذكرني بوجه فلاح شاب في لوحة للرسام غويا. علاوة على ذلك، على الرغم من الخطورة التي كان يتضمنها اعترافه، فإن خطابه المشوب بالتردد، كان يشبه إلى حد ما رواية لأحداث غير ذات أهمية.

تمكن الراهب، على الرغم من الكسور التي أصابت ضلوعه، من الصمود لمدة خمسة أيام، بفضل رعاية (إيشنيك) والركاب الآخرين. وعلى الرغم من الألم، كان يحكي سخرياته لإضحاك الناجين.

"كنت سكيروا راهبا عديم الفائدة. كان الكحول بالنسبة لي أهم من الرب، بعد كل شيء، وفي جميع الأحوال، كوني راهبا، لم يكن لدي زوجة ولا طفل!"

لكن عشية وفاته خاطب (إيشنيك):

"سيدي (إيشنيك)، لم يعد أحد لديه ما يأكله، صحيح؟

أمام صمت هذا الأخير، تابع الراهب كلامه:

"يجب أن تبقى على قيد الحياة حتى تصل المساعدة. سوف أموت. لهذا السبب أطلب منك أن تأكل جسدي، عليك أن تفعل ذلك، سواء أحببت ذلك أم لا. والمساعدة ستأتي، أنا متأكد.

بكى (إيشنيك) وهو ينصت لكلام صديقه. تنفس الراهب بآلم، وعلى الرغم من ذلك، حاول أن يسمعه سخريته الأخيرة.

"لحسن الحظ، وبفضل الرب، جسدي مكتنز بلحم أكثر من لحم الأبقار عند سفح جبال الأنديز. ومع ذلك، إذا أكلت كثيرًا دفعة واحدة، فقد تسكر. لدي ثلاثون عاما من الكحول مخزنًا في جسدي!"

ثم طلب الرجل المحتضر من (إيشنيك) شيئًا أخيرًا:

"بعد الدراسة الجامعية، إذا أتحت لك الفرصة الذهاب إلى اليابان، فاستكشف جيدًا هذا البلد حيث كان المفترض أن أذهب إليه. كنت أعتزم العمل في مستشفى خيرى هناك."

توفي الراهب في اليوم التالي، وأخبر (إيشنيك) الآخرين عن رغباته الأخيرة. ناقشوا فيما بينهم وقرروا قطع جثته على مراحل ودون تسرع، وكذلك جثث الضحايا الآخرين، وصنع لحوم مجففة منها. كان الجميع مصمما على البقاء على قيد الحياة حتى وصول فرق الإنقاذ.

همس (إيشنيك) عيناه مغمضتان:

"أنا أيضًا أكلت، ... غير أنني، في ذات الوقت، أكلت أيضًا حبه، وأنا أفعل ذلك، فكرت في أن أعمل في شركة يكون مقرها اليابان، وأن أعمل في وقت فراغي متطوعا في مستشفى."

سكت. عم الصمت داخل خيمة الأكسجين. كانت الدموع تنحدر ببطء على خدي (تسوكادا) المجوفين. ثم رأيت (إيشنيك) يدخل يده داخل الخيمة، ويأخذ اليد النحيلة التي مدها (تسوكادا) إليه كما لو كان يبحث يائسا عن شيء. وخرجت ممرضة إلى الممر باكية.

- مر عام على رحيل (تسوكادا)، أليس كذلك؟

سأل الطباخ. كنت جالسا في نهاية المنضدة أشاهد الأخبار على تلفزيون صغير

وأنا أشرب كأسا.

- بلى، مر عام.

- أتذكر ظهره المقوس وهو يغادر متعثرا من شدة الثمالة. كان سكييرا أصيلا، لكن منذ وفاته، أفتقده قليلاً.

- لكل شخص سيرته الخاصة.

بالأمس واليوم السابق، استمعت إلى العديد من مرضاي يحكون عن عذاباتهم. الأمهات اللواتي تعرضن للجحود والنكران من قبل أبنائهن، والبنات المحطمت جسدًا وعقليًا من قبل آباء مصابين بالخرف، والزوجات اللواتي فقدن حبهن لأزواجهن، والأزواج الذين هجرتهم زوجاتهم.

تم نقل (إيشنيك) إلى (أوساكا) من طرف شركة الإيراد والتصدير، وهناك، عمل متطوعًا في مستشفى كاثوليكي.

على الشاشة، يقول مقدم الأخبار:

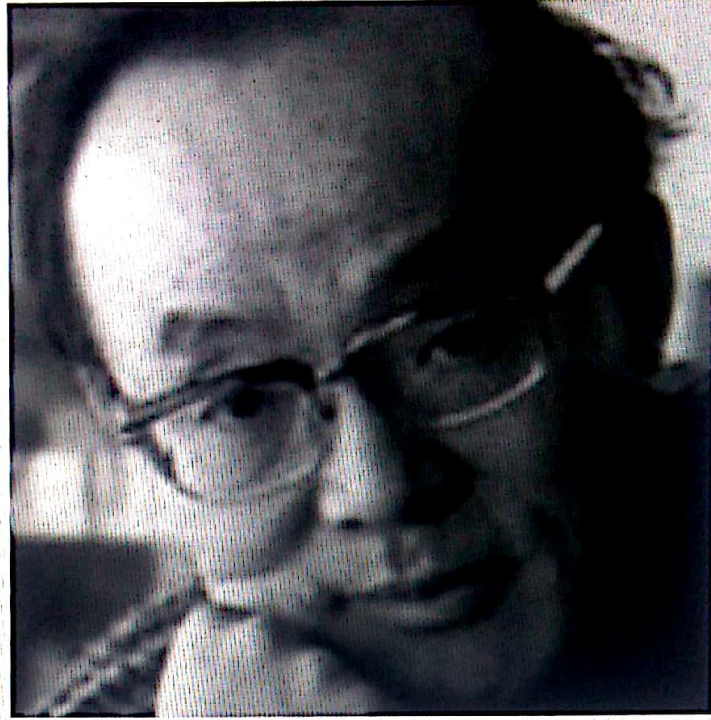
"عاد طالب ياباني، يشتبه في أنه قتل وأكل زميلة له من جامعة باريس، إلى اليابان بعد ظهر اليوم..."

(1) في بعض المطاعم اليابانية، يقف الطباخ خلف المنضدة حيث يجلس الزبائن ويعد الأطباق أمامهم.

(2) جورخاس (الجورخاس): محاربون أشداء ينتمون إلى إثنية نيبالية. اشتهر الجورخاس بحمل سكاكين معقوفة، وكان شعارهم: "أفضل الموت على أن أكون جباناً".

(3) الزحان: مصطلح طبي يعني الإسهال المزمن

شوساكو إندو



كاتب ياباني معروف. وُلد في مدينة طوكيو في 27 مارس 1923، درس الأدب في جامعة ليون وحصل على درجة علمية في اللغة الفرنسية، ثم عاد إلى اليابان ليصبح واحداً من أهم الأسماء الأدبية اليابانية. توفي في 29 سبتمبر 1996.

يكتب شوساكو إندو من منظور فريد باعتباره يابانياً كاثوليكياً يستلهم تاريخ المسيحية في اليابان، وتعكس كتاباته نوعاً من سيرته الذاتية، وتجاربه الشخصية باعتباره دخيلاً في اليابان البوذية. يُعاني أبطال رواياته من مُعضلات أخلاقية في أوضاع صعبة تُصبح خياراتهم فيها شبه معدومة. وتُعبّر مُعاناتهم عن تساؤل أخلاقي كبير حول الدين والإله، وتأملات في البوذية والمسيحية في اليابان.